L A T A T A H A L A A N N A F S A K
لا تتخلى عن نفسك
غفران الصمد
نصوص

لا تتخلى عن نفسط

عفران الصمد

المقدمة

يا الله أنا متعب...

أنا بَالكادِ أحَاول، أسَقط كَلّ يَوم، لا أمل هناك، لا أمل. لا يوجد غير الهاوية؛ ولكنّي دوماً كنت مستعدا لرمي نفسي؛ لأنّي أثق بأنّك من سوف يلتقطني، ينتشلني، ويحتضنني؛ لأنّي أثق بك، لا زلت أسير بذات الطرق التي هديتني إليها. أصبحت الرغبة بالبكاء روتيني، يتكرّر الشعور ويتكرّر، أريد شيئا لا أعلم ما هو، أشعر بأنّ هناك شيء يَنقصني، يُؤلمني ظَني بي، أشعر بأنّي أخيّب نفسي دائماً. أريد الاعتذار لنفسي، لأنّي أشك بها باستمرار؛ لأنّي لا اعرفها جيداً؛ لأنّي أهملتها طوال الوقت؛ لأنّي لا أسعى بها، لا أسندها، لأنّي دائم الميلان. كان يجب أن آخذها لأماكن جميلة بما أنّي كنت قدماها، أن أجعلها تعيش الأحلام على الواقع، ولكنّي كنت خائف حتى أن أحلم، خائف أن أقع، أن أتألم. أريد أن أتصالح مع نفسي، أن أضمّها، أريد حمل روحي كأنّها كنزاً يرعبني أن أفقده، لا أريد أن أتخلى عن نفسي بعد اليوم.

الفصل الأوّل

هذا الكتاب -اليك-

عيونه المتوسعة خائفة، يسد اذناه بأصابع يده، يغمض عيناه بقوة، ينتظر تلك الروح التي غادرته ان تعود اليه في يوما ما، لقد كبر الصغير ولكن لا زال هناك طفلا بداخله ينتظر قدوم الفجر، قال الطفل متمتم بأمل " عندما تضيع، تعال هنا، أجلس بجانبي قليلاً. فأنا لازلت مختبأ، انتظرك، هل تذكر اليوم الذي اختباءنا به معاً؟ فررنا من أصوات البؤس، كنت شجاع أكثر مني، أمسكت يدي المرتجفة وسحبتني إليك، لازلت أتذكر أجسادنا الصغيرة مكومة تحت سلم منزلنا، بأجسادنا الصغير، مقرفصين الأرجل، معتكفين في الظلام، كنا خائفين، هل لازلت تذكرني؟

اريد اخبارك منذ ذهبت، منذ تغيرت ملامحك ونضجت، بينما ترتعش ضحكت، انا لدي امل كبير بانك لن تخذلني، باني سوف اخرج فأراك قد نجحت، قد كبرت واصبحت شخصا استطيع ان استند عليه، سوف اراك فأكون فخورا بك. خرجت مسرع، قائل بأنك سوف تعود قريباً، تقتل كل ما يؤذيني وتعود، أنا لازلت مدفون هناك انتظر بصيص الأمل الذي في عينيك.

هل قتلت كل الجروح أم أنك لازلت تعاني؟ خذني معك؟ احبني، فأنا خائف أن تتخلى عني وتتركني. لا أريد أن أموت هنا قبل أن تحاول إخراجي، لن أموت. سوف تهزم كل الآهات وتأتي رَاكِضًا لتنقذني، أنا أعلم. نعم أنا أؤمن بك. بينما تمر السنوات، يزداد الظلام حولي، وازداد املا في لقياك، هل سوف تعود لي يوما؟ بارتعاش, سحبت يدي من اذناي, وفتحت عيناي, بأقدام تتهزهز, غير واثقة, سحبت جسدي القديم الى الخارج, بخطوات ضائعة -وعندما وصلت للمخرج- سقطت على ركبتاي, مصدوم, وجل, لم اصدق ما يحدث, لولا ان رأيته بعيناي، كان واقف هناك, عند باب المنزل, خلفه ضوء الشمس, كانت ملامحه متعبة ومنهكة, ولكنه فور ان انتبه لوجودي, ابتسم بشق فمه وفتح ذراعيه الي, لقد كبر, اصبح طويل القامة, صاحب هيئة حذرة لطيفة, ووقار كبير, انتابتني نوبة من البكاء, لقد بكيت, لابد انه سوف يقول "ياله من طفلا بكاء" تعثرت بخطواتي وانا اركض اليه, رامي بجسدي الصغير في احضانه.

لفني وجرني بقوة، لقد شعرت بحرارة ودفئ يغمرني، لقد اشتقت اليه. قال بصوت مبحوح، باكي "لقد انتظرتك طويلا" شهقت ودموعي تنساب وصوتي المخجل يعاتبه " لما لم تأتي الي اسرع" كوم وجهي بين كفاه، ونظر داخل عيني "لقد غيرت العالم لأجلك، العالم الذي ظلمك، اهانك

واستخف بك، لقد محيته، كان يجب ان اعمل كثيرا لسعادتك، شكرا لأنك خرجت الي "هذا لأني فقدت الامل بك"

"ولكني لم افقد الامل بك، كان لابد لك من الخروج، لابد لك من الوصول ومن بلوغ النور، لابد لك من لقائي ذات يوم، لم اكن استطيع العودة من اجلك، ولكنك كنت تستطيع ان تأتي، لذلك انتظرتك املا بك يا انا الصغيرة، الحالمة والخائفة، شكرا لأنك كنت شجاع من أجلي" امسك يدي الصغيرة بكفه العريض وسار بي، ليريني ماذا فعل من اجلي. عاد وأخبرني بأننا لا زلنا أطفال حتى وان كبرنا، أخبرني بينما يمد يده ألي والابتسامة تضيء ملامحه بأن الأحلام تولد بعد أن تُدفن، وأن جثث الطفولة التي دفناها الواحدة تلو الأخرى، القبور التي تراكمت فوق بعضها قد ازهرت من جديد، وجدناها حديقة زهور كبيرة، سوف أصدق أي شيء يخبرني به.

" اشتقت أن تخبرني بأني أستطيع البدء من جديد إن أنت لاحظت أني لم أعد أستطيع مواصلة اليوم وانهرت في أوله. "

هل فكرت يوما بأن هناك شيء ينتظرك في المستقبل القريب، ذلك هو الامل، لا تفقد الامل في نفسك، فأنت تستحق ان يؤمن بك احدهم.

-لأنّك لست ضعيفاً-

الصمود أو البكاء بيدك، أنت من يقرر. يمكنك الاتكاء، أو الجلوس، أو حتى الانهيار، يمكنك أن تغطي وجهك بكف يدك وتتمنى الاختفاء متى شئت ذلك. يمكنكَ أن تستسلم بعد عزم أمرك، نعم يمكنك الاستسلام. إن أصبحت في رضًى عما تعيشه الآن؛ استسلم. ولكن أعلم بأنّه لا بأس بالوقوع أحياناً، ويمكن - بكلّ تأكيد - أن تتجاهل الجميع، أن تغلق هاتفك، ألا تكترث لكلّ ما يحدث في العالم، أن تنعم بالسلام، وتغلق باب غرفتك على نفسك؛ يمكنك أن تكون أنت متى تعبت من التظاهر. يمكنك فعل كلّ هذا قبل أن تستسلم، وإيّاك أن تبرّر أفعالك، حتى وإن شعرت بالحاجة الملحة لذلك، بفعلك هذا سوف تشفق على نفسك أكثر.

يُمكنك أن تَصغي لمَا تُريده نَفسك منك، أن تكون منصتاً، حانياً، تَضع حداً لتلك الصيحات داخلك. تَركن العَالم جانباً، وتَفكر بَهدوء شديد؛ وتركز إلى صوتك؛ نعم صوتك أنت... لما تَخرس صَوتك لتَسمع أصواتهم؟ هل ما تفعله في حياتك يسعدك؟ هُناك أصوات لا تَستطيع سَماعها إلّا بالإنصات الدَقيق، سَوف تسمعها الآن. عندما تَهجر العالم، وتَنعم بالهدوء، أخبرني "ماذا يقول لك صوتك؟" هل يشتكي؟ هل يتذمر؟ هذا لأنّك تجاهلته وحسب، لحظة هل كنت تطلب منه ان يحل مشاكل العالم؟ وكأنه ملزم بتغير العالم، هل تريد منه ان يكون بطل وينقذ الجميع، أن

يكف عن الاختباء مثلا؟ دعه يتنفس، انت تخنقه. اَستمع الَيهِ وحسب، لا تأمره دعهُ يَفعل مَا يَشاء.

لا تضحك مستهزئا، لا تَسخر من حَزنك، أنك صادق وإن كان حزنك غير كبير للبعض، ولكن تذكر أنّه أنت من يُقدر حجم الحَزن، لاَزال لكُلّ منّا حَزن يَشغلهُ، فَلا تَكن مَثل هؤلاء الذين كَرهتهم (لا يَفهمون، هَازئين) لشَخصكَ وكُن حَانياً، وأنَصت جيداً فكل شيء منبعه الخوف. إنّه خَائف وحَسب، أن تَلقي بَاللّوم عَلى عَاتقه، فأعلمه بأنّ كل ما حدث لم يكن بسببه، لا تشتمه ولا تشعره بأنّه فقد كلّ الفرص التي أُتيحِت له؛ لأنّه لايزال يملكها.

فعل ما فوق طاقته، كان مرعوبا من النهاية، ركبتاه اصطكتا مع بعضهما، وشفتاه قد ارتجفت، أراد أن يدلّه أحدهم، ويرشده، لقد كان خائفا من الضياع وها هو يتجول في الشوارع وحيدا، يمضي فإذ به عاد لنقطته الأولى. هل سمعت وقع خطواته ما أثقلها؟ هل شجعته للمواصلة؟ أم أسألك هل وثقت به يوماً؟ لم يؤمن به أي أحد حتى أنت؛ فلما لا زلت تعتقد أنّه يستحق أن تلقي بجميع اللّوم عليه؟ الآن هو يحتاجك أكثر من ذي قبل، هل تعلم لما؟ لأنّه لا يستطيع الصراخ طلباً للنجدة، صوته لا

يتجاوز مسمعك؛ لأنّك الاقرب إليه حتماً، هو يحتاجك كي تحتويه بعمق، تخبره بأنّ كلّ شيء سوف يكون بخير يوماً ما.

تَقدم خطوة باتجاه الأمام وادفن كلّ الأحلام الميتة بنفسك، لم يعد يجدي نفعا الاحتفاظ بها، فهي غير قابلة للحياة، وأنت غير قابل للموت، دعها تمضي وحسب. أنت تستطيع بين فترة وأخرى أن تلقي بعض المديح، بعضاً من الشكر والامتنان على صموده، ثم تنصحه إن هو أخطأ، وترشده. اعتبره صديقك، أخاك، أو أي شخص تحبّه، لا تتخلى عنه فقط لأنّه بطيء التعلم، صعب المراس، مزاجي، ومتناقض. لا تتخلى عنه أبدا ولأي سبب، خذ بيده، إلى الصلاح، إلى ما تُريد أن يكون عليه، وكُن صبوراً، وإيّاك أن تخبره، بأنّه قبيح، لن يفلح، أو بأنه فاشل، لا تحطمه فقط لأنّك لا تحبه، فهو يحبك، فكن مستمعا جيدا له.

احتضنه، نعم هكذا وقل له: "لا تبكي يا عزيزي، نحن ما عدنا نحتاج لمساعدة أحد، سوف نَدفن تَلك الأحلام معاً، ونَزرع شَجرة كبيرة مَكانها، نَجلس تَحت ظلها، أنا وأنت فَقط، لا تَقلق سَوف تُرزق أحلاماً أخرى. لا بأس ابكي بقدر ما تُريد -حَتى تَكتفي- حَتى تَصبح أفضل، ولسوف أخبئك عن عالم، فَارتمي في أحضاني مطمئناً، فإن كنت تخجل من دموعك، فأنا أخجل من تجاهلي لك في سبيل عالم أبكاك. آسف يا نفسي لأنّي لم أفهمك

جيداً، لم اعتز بك، ولم أكن فخوراً لأظهرك للعلن. هل يمكن أن أحتضنك الآن فليس هناك غيرنا؟

الفصل الثاني

-حَياة-

تَولد ضَحية التَخلف الاجتماعي مَستعدة لَبيع أحَلامها، طُموحاتها. كَان حَلمي دومًا أن أكَتب قصصَ الأطفال، بَغلافها المَربع، بِرسوماتها الملوّنة، ومَحتواها القليل. كنت أريد أن أمنح الأطفال شيئا يقوّي مملكة خيالهم، ويزيد من سعادتهم، ولكنّي كلّما أتذكر وجوه الأطفال في بلدي أبكي؛ فالأطفال في بلدي لا يختارون لون ملابسهم، ولا نَوع الحَلوى التي في جيوبهم. بَعد نَوبة حِزن وإحباط ورغبة ملحّة في المَوت، أنقذني حِلمي، وقرّرت أن أتمسّك بالحياة من أجله لا غير. بل لأنّي شعرت أني مَلزمة بَالحلم كِي أستمر بالحياة. وعندما سمحت لي الفرصة بالخروج من المنزل، خرجت وفي طريقي رافقتني أغنية كاظم الساهر التي يبثّها راديو السيارة، وضعت رأسي الثقيل على نافذة السيارة ورحت أحدّق بالناس الذين ظننت أنّهم يعيشون.

عندما تَوقفت السيارة في أحد التقاطعات، رأيت فتاة صغيرة نحيلة، ترتدي عباءة سوداء وحجابا أسودا، بنعليها المشققان تَركض على الرصيف أمام المحلات، بيدها كيس بلاستيكي أسود ووجهها لن أنساه أبدا فهو لا يفارق مَخيلتي، ابتسامتها وبراءتها، بينما تركض وصلت لتجمع من الرجال، مشت ببطء وعلى مهل مخفضة رأسها تسير بحذر، كَاللّص تماماً.

وعندما تجاوزتهم عاودت الركض مجدداً، قد عادت إلى طفولتها. لعلّها كانت خائفة من أن تلفت انتباههم أو لا أعلم، ولكن ذلك المشهد قد أثّر بي كثيرا لدرجة عميقة ونزلت دمعاتي التي أخفيتها عمّن معي. شعرت وكأنّ الطفلة كانت تريد أن تلعب وتمرح، ولكنّ المجتمع قد دفعها نحو النضوج سريعاً. يؤلم النّاس أن تحترق فراشة، أن تتمزق أجنحتها، أن تعجز عن الطيران، والعنف ضد الحيوان تجد من يتعاطف معه؛ ولكن الأطفال في بلدي، الأطفال الذين يتعلمون العمل قبل السير، هؤلاء من لهم؟ أهاليهم قد تخلوا عنهم، هم أيتام حرفيا، هل يُفترض أن نعامل الخطأ كأنّه صواب؛ لأنّه الطريقة الأنسب للعيش. فترة الطفولة حتى وإن لم تتذكرها، سوف تبقى معك للأبد، وعَقد الطَفولة تبقى للأبد، تؤلم صاحبها، لا يمكنه أن يبوح بها أو أن ينساها.

بعد تَلك الثورة التي جَالت في نفسي، بعد تلك الدموع، أقسمت أن أحقق تلك الأحلام، أحلام الأطفال هي ملك لهم؛ وحلمي أنا أن أساعدهم على تحقيقها، أن أنهض لأمد يدي إليهم. تَلاقت أعيننا أنا والطفلة، وشعرت كما لو أنّ روحي دخلت جَسدها النحيل، وفجأة شعرت بأنّي شخص آخر. مشى السير وعدنا للمنزل مجددا، قطعت مسافات طويلة. دائماً ما أقطع الكثير ولكنّي أعود مجددا لنقطة الصفر.

ودائماً ما أعبّر عن حزني بابتسامة بلهاء، وكأنّي لا اعلم شيئا ولا أفقه في شيء، وكأنّي طفلة مدلّلة مستهترة، فخلعت عباءتي ودخلت لغرفة أبي وأمي، كان الجو مشحونا بالغضب والحمق، جلس أخي وجلست أنا، فقال أبي: " أين ذهبتما؟" فأجبت أنا بدل أخي، ولكن ما حدث قد فاجئني رغم أنّه ليس بجديد "أُصمتي انتِ، ولا تتكلمّي" قالها بعصبية واهتياج مبالغ به، لقد كانت ليلة جميلة، لعلّه شعر بذلك، لعلّه رأى السعادة في عيناي، لما الأبوين يكرهون أن تسعد بناتهم؟ يمنعون أيّ شيء يشعرهن بالسعادة، ويحرّمون الابتسام، وينهون عن الراحة النفسية، يزرعون الصفات الخبيثة داخلها بحجج كثيرة، مثل الخجل المبالغ به، وضعف الشخصية والانصياع والكثير من خفض البصر واحترام الرجال، لقد كانوا يربّون فتيات مكسورات الخاطر. لقد شعرت بأنّي حرّة عندما خرجنا، حتى أنّي طلبت ما أرغب به في المطعم، لقد شعرت بأنّي طائر حر، ولكنّي عدت للقفص الآن.

شيء ما بداخلي قد تحرّك، شيء سجين تحرّر، وعندما ذهبت لسريري بكيت بحرقة، بكيت بأشد ما يمكنني، هل يمكن لفتاة ضعيفة مثلي، أن تحقق أحلامها؟ سألت نفسي كثيرا قبل الآن، لم أكن متأكدة دائماً، كنت دوماً لا آخذ نفسي على محمل الجد، أشكك في قدراتي، أنقّص من قيمتي،

ربما أنا من سمح لنظرات الاستصغار أن تُرمى باتجاهي، هكذا هو الأمر، لطالما كان هكذا.

منذ اللّحظة التي ابتسمت بها بدل أن أبكي، ورضيت بدل أن أعترض، منذ اللّحظة التي صمتت بدل أن أقول لا، فقدت القدرة على التعبير، وأصبحت أنسى كثيرا وأعتزل نفسي، منذ اللّحظة التي سخرت بها من نفسي وأشفقت علي، واجهت السخافات والتهريج بدل الغضب الذي مارسته على ذاتي، منذ غيرت صفاتي لإرضائهم، منذ تلك اللحظة لم أكن بخير ابداً.

لقد رأيت فتاة تبكي، جميلة تنظر لي بعمق، انعكس ضوء الشارع في عينيها لأرى تلك الدمعات الساقطة على نافذة السيارة، بينما أركض على الرّصيف، لقد التقت عيوننا معا وشعرت وكأنّي دخلت بجسدها. رأيت نفسي وأنا أبكي، كنت ذاهبة لشراء الحلوى وأشعر بالسعادة، فابتسمت لها لعلّها تبتسم لي، ولكنّها لم تفعل، لم تستطع إعادة الابتسامة لي. كان لي خمسة إخوة أصغر مني، كنا نسكن معا في نهاية الشارع بجانب مجرى المياه الثقيلة المكشوف، لطالما كانت أمي لوحدها، تعمل كثيرا لتعيل عائلتنا. كانت شقيقتها ميسورة الحال، وكانت تزورنا سرا دون علم زوجها

المتسلّط؛ كي تعطي والدتي بعض أكياس الخضروات والمال، واليوم خالتي شدت على يدي واضعة بعض المال في قبضتي وقالت لي بهمس: " لا تخبري إخوتك، مفهوم" ولكني جريت حتى هنا كي أبتاع بعضاً من الحلوى لأجلهم.

"حياة، أنت هنا مجدداً" وجهي مضغوط على زجاج واجهة محل الحلوى، تجاهلت صاحب المحل بالكامل فهو لا يحب تواجدي هنا، ربّما لأنه يظنّ أنّي قذرة كما قال لصديقه منذ أسبوع عندما أتيت لأجل التسول أمام محله، لقد طردني شر طردة، وحذّرني من أن أتسوّل هنا مجدداً.

أنفي منكبس على زجاج العرض، ثم دخلت أهرول لأختار الحلوى، اشتريتها وعدت الى المنزل مسرعة. وها أنا الآن أسقط على وجهي، في الزقاق المؤدي للمنزل، مغشيا علي، أرجو ألّا يأخذ أحدهم قالب الحلوى منّي، أرجو ألّا يفسد إن لم يأخذه أحدهم.

يا له من حلم غريب، كان يبدو كحقيقة مرة، عندما فتحت عيني، كنت خائفة أن يأخذ أحدهم قالب الحلوى، ولكن بعد مُضي دقائق شعرت بنوبة ضحك، في الكلام يبدو كلّ شيء مختلف، كان يجب أن أقلق بشأن نفسي أولا. وخلال الأيام القادمة كنت أرى نفسي في هيئة الصغيرة "حياة"، أشعر بما تشعر به، وأواجه ما تواجهه، كنت حرّة في جسد الطفلة

"حياة"، كنت طائرا ولكنّي كنت طائرا معطوبا بالكامل. لقد كتبت عن "حياة"، لقد استلهمت أوّل كتابي منها، تلك الكوابيس، كانت تماثل كوابيسي، خوفي وهرعي. أهرب من حياتي إلى حياتها، ولكنّي أجد أنّ ما أهرب إليه، تغيّر شكله، ولكنّه ما زال يمتلك نفس الوجود، مع الفوارق الكبيرة التي بيننا، كلانا ضحايا للمجتمع، للتقاليد، وللدولة الفاسدة، مع فارق أنّ "حياة" لم تكن تعِ ما تعيشه في كثير من الأحيان، وأنّ ما يسعدها بعض الأحيان يبكيني، ويعصرني الألم والبؤس.

قصة حياة لاقت رواج، وتزاحم الناس لقراءتها، كتبتها باسم شهرة لأنّ اسمي سر لا يجب أن يعلم به أحدهم، وجهلت الناس من هي حياة التي كتبت عنها، بينما حياة لا تعلم أبدا، وبقيت جاهلة بتلك الحياة التي كانت لا تسحقها. ربما ذلك كان مصدرها الوحيدة للسعادة، لم يكن يهمها سوى ما تجنيه من التسول لتشتري به الحلوى لإخوانها الأصغر، متجاهلة كلّ الإساءات والمذلّة وانعدام الأمان، وحر الشمس وبرودة الشتاء، كانت تظنّ أنّ ما تفعله لا بأس به؛ لأنّ لا أحد يهتم لضياع طفولتها.

وفي ذلك اليوم أردت أن أعود إلى حياة، أن أهديها شيئا يغيّر لها حياتها. أردت أن أخطفها وأهتم بها، ولكنّ الأحلام تبقى أحلاما، وكلّ ما يمكنني أن أقدّمه لها، وجبة طعام صالحة للأكل.

لا تحلمي كثيرا؛ لأنّ الواقع مر؛ لأنّ الأحلام لا تدوم؛ ولأنّ الدولة لن تراعي كونك مجتهدة في عملك، هنا، يعيش من يجامل، من يسرق، من يجيد التلاعب، من لديه القدرة على ارتكاب الجريمة، من لا ضمير له ولا إنسانية، من يستطيع كسر القوانين والعيش بقانون البقاء للأقوى، لا يهم يا صغيرتي كم اجتهدتِ؛ لأنّك سوف تتألّمين ما لم تتعلّمي قانون الغابة، ولكنّي أعترض. أنا لن أستطيع العيش مثلهم، أنا أؤمن بالإنسانية، وليس بالبشر.

حتى وإن لم تكن هناك إنسانية، لعلّ آخر بذرة منها بداخلي، وأنا من سوف أنقذها من الانقراض للأجيال القادمة، أنا سوف أعيش بالأمل، سوف أحلم، وأحلم، ما استطعت، حتى وإن لم تتحقق أحلامي، حتى وإن تحطّمت، سوف أحلم مجددا، لأني بدون الحلم، سوف أموت لا محالة. أنا اتألم ولكن لا بأس ما دمت أستطيع أن أحلم، هذه ضريبة، لكلّ شخص يريد أن يعيش وأنا أريد العيش وأطمح للعيش وأنتظر الفرصة للعيش، حتى وإن عشت لسنتان أو شهران، سوف أكتفي، نعم؛ سوف أرضى بذلك حتماً وأكون شاكرة؛ فالنجاح الحقيقي هو أن يكون للمرء حرّيته.

لقد انهارت تلك العوالم، في فصل الصيف رأيت حياة تختفي وبحلم آخر رأيتها تتزوج من رجل يكبرها بثلاثين سنة، وفي الشتاء راودني حلما آخر بأنّها

هربت راكضة من منزلها، بينما تحمل في جوفها قلبا آخر، كانت حياة تلاحقني، الكوابيس كانت تخنقني، من هي حياة؟ وفي نهاية الشتاء انتهت تلك الاحلام لأنّ حياة لم يعد لها وجود، لقد قتلها المجتمع، انتحرت حياة مع جنينها المتوفي في رحمها، بعد أن طردها المجتمع، وأُغلقت جميع الأبواب في وجهها، حتى عائلتها لم تستقبلها، وحتى بعد موتها طَعن الناس في شرفها. في مهب الريح حياتنا، لن نجد ما نبحث عنه أبداً مهما حاولنا، لن نجد الطريق للمنزل، لن نحتضن الدفيء بين العائلة ولن نسمع صوت الضحكات أثناء تناول الطعام معاً، نحن اليتامى كان دوماً ينقصنا شيء، لا نعلم ما هو.

-زحام-

اليوم مخلف عن الأمس، لذلك انا متعبة... ثلاث طَرق أمامي، وثلاث نسخ تشبهني تقف هناك. كلّ نسخة ذهبت في أحد الطرق، جميعنا ضائعون. لا أعلم أيّهم أنا، جميعنا فقدنا الطريق. لست في أي مكان، لا وجود لي في المجتمع. لذلك أنا سجينة غرفتي، أخبر نفسي كلّ يوم، لا بأس كل هذا سوف يمضي، الشعور بالوحدة، العجز، الإحباط، الحزن، الاكتئاب، الخوف والقلق كلّ شيء سوف يمضي، ثقي بهذه الحقيقة وحسب.

في كلّ فترة، كنت أحارب شيئا لا يراه أحد، ولكن جميعهم كانوا قادرين على قتله ولكنّهم لم يفعلوا؛ لأنّهم كانوا يدّعون عدم رؤيته. واستمرت الضحية بالسقوط وكأنّها ورقة مصفرة ومنذ ذلك الحين حاربت الخوف، القلق، البؤس والخذلان والكثير من المشاعر التي بدت كالوحوش في عينيها، زاد إدراكها، ومنذ ذلك الوقت لم تعد تسقط كالضحية، انتهى فصل الخريف، فهي لم تعد تستطيع أن تحلم. لقد قتلوا أحلامها؛ حياتها عار، وموتها كان يجلب العار لذويها، لم تَعش ولم تَمت، لقد تم مَحوها بالكامل.

لم تتَوقع أو تنتظر شيئاً مَن المَجتمع، لقد قَبلت بَكل مَا كَان يُعطى لها، حتى الحزن واللّوم قد قبلتهما منهم. اَنتزعت الأحلام من جَلدها وكأنّها شظية

نَبتت سهواً، تَمنّت ألا تشعر كي يتوقف ألمها. أخرجت كلّ حياتها ورمتها أمامها، مَارست الزهو، وأصبحت كما يريدون تماماً. انطفأ النور وبَقيت وحيدة تكره ذاتها وتكره الجميع. يَصرخ العالم حقوق المرأة، وتَصرخ أمي "المرأة خلقت عَبثا"، بينما يقول أبي "ليتها كانت رجلاً"، ويصرخ أخي بينما يجري إلى خارج المنزل "زوّجوها قبل أن تَفسد".

تَقول صَديقتي دائماً أنّ ما يجعلنا مهمّشين في المجتمع هو أنّ عدو المرأة امرأة مثلها وعَانت مَا نَعانيه نَحن، صَبرت وبالكاد تَحملت، ثم ها هي تَطبع جِروحها القَديمة في جَبهة كلّ فتاة تَراها. تَظنّ أنّ حِياتها هَو المَقياس الذي يَنبغي أن تَسير عليه كَلّ فتيات العالم، فقط كي لا تشعر هي بأنّها مظلومة، تمارس الظلم. تَريدني أمي أن أعيش مَثلها؛ لأنّها عاشت هي الأخرى مثل والدتها. تحاول بكلّ الطرق الممكنة أن تَدفعني بَالطرق التي دفعتها الحياة بها، لأكون مثلها. لابد أنّ أمي فخورة بنفسها، يَستحيل أن تَفكر أمي، بأنّي قد أكون مَشمئزة من الحياة النمطية التي نَعيشها.

تَعلّمت مَن أمي، ألّا أنجب طفلاً، كي لا أمارس الملكية عليه، كي لا أقتله بحجة "أنا أعلم أكثر منك، وهذا لمصلحتك، والناس قد تقول" من الآن - أنا لن أكون القاضي، ولن أحكم فالله هو الحاكم لا أنا-

ولكن من أنا؟، أنا الشخص الذي لن يهمه أن يَكون نَسخة من والدته، ولا نسخة من أي شخص آخر، آخذ ما يعجبني، أخلق الصفات التي أحبها وأضعها داخلي، حَتى وإن كنت منبوذة في المجتمع. سوف أحَارب ضد تقاليده المتخلّفة، ضد كلّ شخص يقول "مكانك في المطبخ"، ليس أنت من يحدّد أين يجب أن أكون، فليس هناك أي قيود بيدي، ولا طوق حول رقبتي، لن أسمح لأي شخص أن يَدفعني، أو يَسحبني. أنا أسير لتغيير الطريق الذي رسمتموه -منذ زمن- لسير عبيدكم. لذلك أصبحت حياتي عَبثية، كلّ شيء فَينا مُهمش، حَتى ضَحكاتنا تَخرج مُشوهه كَاذبة. وكأنّ الرّب خلقني ضعيفة لأبتلى. ترى عائلتي أن طفولتي كانت هادئة جداً وبالكاد يتذكرون الآن وجودي بينهم. بينما كنت داخلي أصرخ بصخب، وحدي من سمعت تلك الأمنيات وهي تصمّ أذني بطول ندائها "ليتني رجل" وكانت أسمى أمنيات تلك الطفلة، أن تَركب دراجة هوائية وتتجوّل كما يحلو لها.

تَحطم كلّ شيء بكلمة واحدة، فَقدت الصغيرة كلّ شغفها بالحياة عندما تم إخبارها بتأنيب "الفتاة لا تملك صوت لتعترض فيما تكونه". سوف يَتم تزويجك، قبل أن تعي حتى ما هو الزواج، لكي يستطيعوا أن يزرعوا بداخلك بذور العنصرية، حتى ينالوا منك، ويجعلوك العبد الخاضع والضعيف، الذي لا يمتلك الحق في أن يربي جيلا، أو أن يسمي ولداً. "لا

يَجب عليك يا بنيّتي أن ترفعي رأسك بينما تسيرين، دعي نظرك يلتهم تراب الأرض، ولا تتلفتي كي لا يحطم رأسك المجتمع المتخلّف وألا يفقع عيناك الحاقدة عليه". ألغيت نفسي ومسحتها؛ كي لا يَعلم أي شخص أنّ لبيت فلان ابنة، حتى صَوت بكائي اختفى، أخفيته حتى عن والدتي، ولأنّي كنت وحيدة كرهت نفسي. قيل لي لا تثقي بأي شخص، لا تثقي بصديقتك، جميع الناس ينوون شراً بك، كانوا يريدون حمايتي -أعلم- ولكنّي كنت أبالغ في خوفي وحسب، فبقيت خائفة طوال حياتي من المجتمع ومن الناس.

كنت مُهمشة بَين الأفكار والتقاليد، ولم أختر بل تم اختياري. وعندما أصبحت واعية وتفتحت عيناي، كان الأوان قد فَات، لم تَكن لي هوية أخرجها للعالم وأقاتل من أجلها، لقد تمّت عملية محوي بنجاح، لم يُكن لي صوت أردده على مسامع الجهل. ما هو ذنبي؟ لما قطعوا أوصالي؟ لما عشت بلا أصدقاء؟ لما كان عليّ أن أعاني لوحدي.. أن أبكي باشتياق على صديقتي في البيت المجاور، لما؟ ألا يَرون أنّ الإنسان لا يستطيع كبت نَفسه دون أن يُمزقه انفجار قد بدأ من الداخل؛ كي يرسله إلى قبره سريعاً. في آخر الطريق لن يكون غير كتلة من اللّحم، وبعض من جنين الأمنيات التي ماتت في رحمه قبل أن تولد. التشكيك في وجودي، جعلني أفكر في قتل نفسي آلاف المرّات، ولكنّ الله كان يخجلني دوماً بوجوده جانبي. تم عزلي عن العالم ولكنّي عدت، حلمت، لم يستطيعوا كبت عقلي؛ فأنا لا زلت

أفكر وأحلم وسوف أنجو لوحدي. كنت دائماً متأكدة بأنّ الحرّية قادمة، وأنّ الاغلال سوف تُكسر، ولا زلت أؤمن بذلك ولو بعد حين. إن لم يكن لي سوف يكون لصغيرتي، صديقتي، شقيقتي، لفتيات لم يولدوا بعد.

افعلي ما تستطيعين، خذي الجانب الذي تفضلين، ولكن لا تستبدي، لا تقولي أبداً أنّنا خلقنا لنكمّل رجلاً، أو لنخدم شخصاً، أو لنعمّر منزلاً لم نشعر به بالأمان؛ لأنّنا لسنا ضعفاء، سوف نربي جيلاً لا يستحقر المرأة، لا يستحقر الفتاة، لا يحكم عليها. يجرّونك من يدك ويرمونك في الظلام ثم يسألونك لما أصبحت أعمى لا تبصر غير السواد؟ هم يُريدون شيء قوي صلب ليملأ جبنهم، ولكن لا بأس إن لم تكن بخير، لا تنسحب أبدا، سوف يأتي يوم وتصنع به مجدا لم تكن تتخيّله، اطمئن، أمام الله كلّنا متساويين، وكلّنا نستحق ثمرة جهدنا، وصبرنا. رغم أنّي أعيش في كهف رطب، مظلم وبارد، ولكنّي اعتدت أن أدعوه بالوطن، حيث يعود المرء لمكان يألفه دون أن يشعر بالقلق مما قد يجهله، فنحن لا نملك مكانا آخر نعود إليه، ولكن أ ليست المرأة من تربي الأجيال؟ لا نريد عالما يلغي دور الرجل، ولا نريد عالما بلا نساء. ليأخذ كل شخص دوره بعدل، فكروا بأننا بشر، لسنا اناث ولسنا ذكور، نحن بشر فقط، لا تمارسوا التفرقة والمقارنة.

الفصل الثالث

غَنّي

يسيرون معاً، بخط واحد، نحو شيء مجهول. لا يلتفتون، وجوههم خالية من التعابير، يقال بأنّ لا أحد قد رآهم يبتسمون من قبل أو يبكون. وليس هناك بينهم من يتعب أو يتذمر من عمله. ولكن زيزا كان ثرثارا منذ صغره، يحب المرح، ويحب الغناء، كان يغني بصوتٍ عالٍ، يزعج الجميع، كان غنائه عبارة عن صَراخ مَزعج ولكنّه كان يحب ما يفعله.

زيزا قصير القامة، ضئيل، يواجه دائماً صعوبة في قطف التفاح والأعمال الأخرى التي تتطلب القوة، ولكنّه لم يكترث لضعفه يوماً، لذلك طلبه مالك المزرعة ذات مرّة وقال له "زيزا، أنت عبد لدينا، حتى وإن لم تمتلك أقلال في يديك، وإن لم تَطع لأصلبنّك أمام كلّ المزارعين"، كان مالك المزرعة شخصا ذا هيبة والجميع يخافه، صارم وقاسٍ، يعاقب كلّ شخص يخالف أوامره وينحرف عن القطيع، يسنّ قوانيناً ظالمة جاحدة بحقوق الإنسان، وكانت كلّ العوائل العاملة تخشاه وترهبه، إلّا زيزا.

استمر زيزا بإزعاج من حوله، يركض في الحشائش، يتسلق الأشجار، يجمع الأصداف الطينة التي يجدها، يتسلل إلى خارج المزرعة لتسلق الجبال، يستكشف، كان زيزا صاحب روح مرحة مستكشفة. الأشياء الغريبة التي وَجدها، كانت تشعره بالحرّية، وبعكس البقية الذين كانوا

بالنسبة إليه تحدي يجب أن يجتازه، كان يمرّ بجانب المنازل، فيرمون عليه الحجارة كي يصمت، يسعده هذا، يبتسم ثم يعاود الغناء بصوت عالٍ أكثر، يعجبه أن يراهم غاضبين منه لأنّه مختلف. وفي أوّل اليوم، كان زيزا يحضر نفسه ليحتفل بعيد ميلاده الثاني عشر، ولأنّه كان يسكن لوحده في ذلك الكوخ، قرّر أن يصنع السعادة فيه، فذهب لقطف التفاح الطازج، وكانت أقدامه الصغيرة تتسابق مع الرياح وضوء الصباح، يخيّل له بأنّ السعادة والمجد سوف ينتظره بالمستقبل البعيد.

بينما فطيرة التفاح تتموضع أمام زيزا ضاماً كفاه ببعضها ومغمض عيناه يشكر الرب الذي وهبه النعم، دخل رجل من رجال الحقل، ضخم الجثة ذا وجه متعصب وحاجبان ملتصقان ببعضهما وعيون تحتقن بالكره والحقد. نهض زيزا من مكانه بتعجب وتوتر، هذه أوّل مرّة يدخل فيها أحدهم منزله. فظن زيزا أنّ الرجل قادم ليحتفل معه فقال مبتسما ابتسامة عريضة "هذه فطيرة التفاح قد صنعتها أنا، لا يغرّك شكلها القبيح فطعمها لذيذ أؤكد لك، يمكنك أن تجلس معي، لا تخجل".

رصّ الرجل على أسنانه بغيض، ثم سحب زيزا من ذراعه للخارج، بكلّ قسوة، ولكن زيزا قد كف عن المقاومة فور أن وجد جميع أهل المزرعة يقفون أمام كوخه وبأيديهم مشاعل من نار، ثم ها هم يقودونه إلى بيت

المالك جراً، كي لا يهرب، وزيزا لا يعلم ما الذي ينتظره وما الذي فعله يمكن أن يغضبهم منه هكذا.

وقف أمام المالك الذي كَشر عَن أنيابه وقال "إنّه اليوم الذي أروّضك به أيها المتمرّد" فصاح زيزا بخوف وجزع وهو يحاول انتزاع نفسه من قبضات الرّجال "لقد حَسبتكم عائلتي، لقد كنّا أصدقاء، لماذا تفعلون هذا بي؟" لأوّل مرة في حياة زيزا قد شاهد المزارعين وهم يبتسمون ويبدون تعابير الفرح، لأوّل مرّة منذ ولادته يسمعهم يضحكون بصوتٍ عالٍ "أنت ليس لك عائلة يا زيزا" تساقطت دمعات زيزا من عيناه، شعر بالبؤس وبأنّ الجميع قد تخلّوا عنه، لقد شعر بالوحدة وهو بينهم أكثر مما كان لوحده، كان هذا أوّل شيء محزن يمرّ به بهذه القسوة، وتمنى لو يستطيع أن يغادر المزرعة ويهرب إلى التلال الخضراء، وينجو من كلّ هذه الأفكار.

تم تعليقه عاري على منصة قصر المالك، وكل يوم يأتي المزارعون قبل عملهم ليضحكوا عليه، وهم يؤشرون عليه بأصابعهم، وهو بالكاد يمتلك القوة ليرفع عيناه، يشعر بأنّه لا يستطيع مواجهتهم. ثم يعودون مجددا في اليوم التالي، بينما تشرق الشمس بالأفق البعيدة، فور أن يفتح زيزا عيناه بعد ليلة طويلة من الكوابيس، يجدهم أمامه يضحكون شامتين مستهزئين: "غن إن استطعت، أنت عبد، أنت فاشل، أنت يتيم، أيها القبيح

القصير، كيف تجرؤ؟" ثم يأتون لإطعامه، يتقيأ زيزا طعامه، في كلّ مرة يدفع الطعام قصراً في حلقه يبكي. حتى وصل لمرحلة لا عودة فيها، فتوقف عن البكاء بعد مدة، توقف عن تقيأ طعامه، توقف عن الرغبة بالعيش، اختفى زيزا القديم، قتلوه بالكامل، يودّ لو يستطيع تقيؤ الطعام مرّة أخرى، يشعر بذات الاضطراب، بذات الحرقة، وبذات الألم ولكنّه الآن ما عاد يستطيع إظهار أي تعابير.

في كل صباح تبقى عيناه مغلقة، يتمنى ألا يستيقظ، لأنّ الواقع كالكابوس، كانوا أعدائه، جميع المزارعين، لم يكره المالك بقدر كرهه للمزارعين، الماء البارد يضرب وجهه وها هي عينا زيزا الفارغة تواجه العالم. انتهت فترة عقاب زيزا بعد زمن، ولكنّهم لم يستطيعوا أن يسمعوا صوته، شعروا بأنّهم قد فقدوه للأبد، وتلك النظرات ما كانت تواجه أحد قط. عاد زيزا إلى كوخه الصغير، نسي زيزا في أي يوم ولد، وها هي فطيرة التفاح المتعفنة تقابله، لم يجرؤ على تحريكها، بقيت الفطيرة في مكانها، كان كلّ يوم يذهب إلى العمل، كالدمى.

تمر من تحت أقدامه الأصداف الفضيّة، ينظر إليها بعدم اهتمام ثم يذهب في طريقه، وفي كلّ ليلة يخلع قميصه يتلمّس جسده، يبحث عن الجروح، يتلمس ظهره، معدته، لا يجد أي جرح، هم لم يقطعوه، وأصبح

يتساءل باستغراب "ماذا فعلوا لي؟، أشعر بأنّي منطفئ، هم لم يشقوا صدري، ولكنّي أشعر بالألم" لم يكن راضٍ عن حالته، ولم يكن يعجبه ما يحدث معه، أراد أن يعود كما كان، ولكنّه كان عاجز عن فعل ذلك، أراد أن يحيا وأن يمارس الغناء مجددا، أراد ذلك لأنّ هذه هي سعادته.

انضم لهم في الصباح، ذاهبين معا نحو النهر يغتسلون، دون أن يتحدثوا دون أن يلتفتوا، السكون والهدوء الذي امتثل له زيزا كان يفوق خيال المرء، وهو ذاته لا يصدق كيف أصبح هكذا. وبعد عدة أسابيع بينما يراقب المزارعون في كلّ مرّة يذهبون بها للاغتسال شعر كما لو أنّه كان يحارب الاعتياد، كان خائفا أن يصبح مثلهم للأبد، فقرّر أن يفتح صدره ليرى ما الذي يؤلمه وبالفعل أثناء الليل دون أن يراه أحد أخذ مقصا صغيرا وشق فتحة صغيرة، ومدّ نظره يحاول أن ينظر إلى الداخل، ولكنّه فشل في رؤية أي شيء، ثم أخفى الجرح تحت الضمادات كي لا يراه أحد. ولكن بينما كان زيزا يستحم مع القرويين، قد شاهدوه جميعهم، جرح زيزا لم يكن بخير، كان ملتهب ومتعفن، ولهذا كان زيزا يعاني من الحمى طوال الأيام الثلاثة المنصرمة. فأجمعوا على نقله إلى كوخ خارج القرية، كان كوخ لطبيبة عجوز تسكن مع حفيدتها، وتجني رزقها من جمع الاعشاب المفيدة، وصنع الدواء منه. بعد أسبوع فتح زيزا عيناه في كوخ الطبيبة، وجهل ما يحدث "أيّها الفتى، لقد تحسنت حالتك، ولكن يجب أن تبقى

أسبوعاً آخر" جلس من مضجعه، مضمّد الجرح وشاحب الوجه "كم عمرك؟" لم يجب زيزا بحرف بينما يتناول طعامه بصعوبة بالغة "تبدو بالخامسة عشر"، بينما زيزا لا يمتلك أي ردة فعل، "هل الطعام سيء؟" لم يجب كذلك وكأنّه لا يسمع.

دخلت حفيدة العجوز الصغيرة وهي ترتدي فستانا مزخرف النهاية، مطرّزا يدويا من الأعلى، سحبت الصغيرة جدتها وراحت تهمس له "إنّه يبدو كالدمى، هل هو كذلك؟" ضحكت الجدة "لا يا صغيرتي، إنّه يتألم وحسب" وأثناء الأسبوع كان زيزا مضطجعا على سريره الذي لا يفارقه، يرفض الطعام أغلب الوجبات، وصامت طوال الوقت. بينما الصغيرة كانت تجلس بجانبه تحاول أن تضع المرهم على جرحه الذي امتثل للشفاء "هل تتألم؟" نظر إليها بصمت، بعيون تائهة، البريق في عيناها وابتسامتها، تشبه عيناه القديمة، تشبه ابتسامته "هل تجيدين الغناء؟" قال بعد مدة، نظرت الصغيرة إليه وابتسمت بعفوية وبدأت تنشد لحناً قد حفظته، لقد أحبّ صوتها، أحبّ الحرّية التي تخرج من فمّها ولكنّه لم يستطع أن يغني كما اعتاد. كان ثقيل، يشعر بأنّ في أقدامه قيود من حديد تمنعه من الرّكض، وهناك حلقة كبيرة تخنق عنقه تمنعه من الكلام والتعبير، يشعر بأنّه مقيّد "قل لي هل أنت تتألم، لهذا لا تستطيع الكلام؟"

"أنا لا أشعر بشيء". "قالت جدتي بأنّك تتألّم، هي تستطيع تمييز الذين يتألّمون من نظرة واحدة، لا بأس سوف تشفى، وسوف نغنّي معاً، ونركض إلى الأعال، لا تخف، كلّ الأشخاص الذين أتوا الى منزلنا قد شفوا، وأنت أيضا، ابذل جهدك لتتعافى" اخفض رأسه باستسلام، وتساءل إن كان يحق له أن يغنّي مجددا، إن كان يحق له أن يركض ويمرح كما كان.

وبعد عودته لكوخة في المزرعة بزمن، تذكر كلام الطفلة، فقرّر أن ينهض لرمي فطيرة التفاح العفنة، ومن هناك حفر لها في الأرض بجانب الشجرة التي قطف التفاح منها، ودفنها. شعر بالاختناق والراحة بآن واحد فأخذ يبكي بحرارة، يناجي من دفن تحت التراب بصوت هامس في ليلة مظلمة كئيبة.

"ها أنتِ أيتها السنين تدفنين، أنا الآن بلا عائلة، بلا ندم، بلا أحلام، ولكن هل تعلمين؟ أنا أشعر بأنّي منطفئ خائر القوى، أحارب كلّ يوم في سبيل أن أستيقظ، هم لا يعلمون، بأنّي أصارع موتي، أصارع لوحدي رغبتي في الموت، كلّ يوم أنا أعيشه، هو بمثابة قرار خاطئ ورغبة لم تتحقق، أريد لهذا الظلام أن يبقى، فأنا خائف من المواجهة، خائف من الانسحاب، خائف من البقاء، خائف من مواجهة صباح اخر" مسح دموعه ونهض.

وفي تلك الليلة، قد قرّر بأن يهرب من المزرعة ولا يعود إليها. هو لا يمتلك عائلة، لا يمتلك وطن، لا يمتلك منزل يعود إليه، وليس هناك من سوف يبكي عليه إن غادر. وصل الى باب القرية الحديدي وقد عزم أمر المغادرة، ولكنّه تردد وشعر بأنّه عاجز، وبأنّ العيش في الخارج مستحيل، فهو لم يغادر أبدا من قبل سوى تلك المرة، ولكنّه قال في النهاية "إما أن أعيش أو أموت، سوف أرفض هذا الانطفاء، سوف أهجر كلّ شيء يؤلمني، أنا الآن أستطيع الركض" فركض إلى الخارج دون أن يتلفت، لقد تحرّر من قيوده، فكان يضحك ويصرخ وهو يجري مهرولا في التلال. ذهب إلى الفتاة الصغيرة، لقد قالت له أن يعود، أن يغنيا معا، ويركضا معا، وها هو الآن يقف أمامها. تعجبت الصغيرة من ظهوره المفاجئ ولكنّه أضحكها عندما غنّى بصوت خجول، ثم على صوته بالتدريج، الدمدمات أصبحت صوتا عندما بدأ.

"غنّي معي" ودون أي تردد غنّت الصغيرة بصوت عذب "لا تبالي، فستشفى الجراح، وظلام الليل لن يطول". "انتظر الفجر، لا تجزع، فكل ألم زائل، وكل هم منفرج. لن يدوم شيء، فقانون الحياة الزوال، وها هي أيامك السيئة تُزاَل، وها هي القيود تُنكسَر. ولأنّك تُؤمِن بالحرّية، تؤمن بالسعادة الآتية، سوف تكون بخير. لا تهرب من الفَجر، لا تَهرب مَن الصباح. عش ولا تخشى شيء، فهم كلّما كسروك زدت قوة، لن يستطيعوا كسرك للأبد،

ما دمت تَقاوم، وتَشافي نفسك بنفسك، لن يخرسوا صوتك ما دمت تَحب الغناء".

-لا تصمت-

أسوأ شعور أن يُؤخذ حقك وتَصمت، عاجز عن إرجاعه رغم أنّه أمامك، لقد تنازلت وتخليت؛ لأنّك لا تملك القوة الكافية للمقاومة. أصبح بيد غيرك، حقك المسروق لم يعد يمتلك اسم. تَنظر أنت لكفيك الخاليتين، تغطي وجهك بهما وها أنت تبكي بحرارة، يهتز جذعك بقسوة، تخونك طيبتك الزائدة، وظنك الحسن، ما كان يجب أن يحدث ذلك لشخصاً مثلك. تصنع شرخ صغير بين أصابعك، تسترق النظر، ينتابك الفضول حول إمكانية الأرض في بسط عدالتها ولكنّك تتفاجأ بأن من سرقك سعيد أكثر منك، يضحك بصوت أعلى من جميع طموحاتك، بينما يستمر بالمناورة والتسلل بين الحشود لسرقة المزيد، وأكل المزيد، دون أن يصيبه اي شعور بالتخمة أو الغثيان كما توقعت أن يحدث له، لا توجد عدالة.

يديك على قدر ما حنّت للعدالة، تقرّحت، تحاول السعي، التمسك بأي شيء أمامها، ولكن لا شيء في النهاية يليق بالجهد الذي بذلت. تبتسم وأنت تزم شفتيك بحسرة وتحاول ألّا تحتج، أن تبقى متماسكا، ومتزنا، ألّا تفقد عقلك. تنتهي بإقناع نفسك "هذا ما أراده الله لي، سوف أرضى به وحسب"

هل تعلم لما سوف ترضى به؟ لا، لأنّ الله اختاره لك (حاشاه يختار لك القهر)، بل لأنّ الاعتراض يتطلّب طاقة أكبر من الخضوع. تمسح يداك بملابسك في نهاية الأمر، وتمضي عائدا.

ثم تخونك قوتك التي لا تكفيك لتشن حرباً، أو ترفع راية وصوتك الذي لا يتجاوز حوار عقلك مع مستقبلك اللذان يتوصلان إلى أنّ هذا قدرك ويجب أن ترضى أنت به، فترضى؛ وتنسحب. تعود لما كنت عليه هامشي ومهمش، يظنون أنّهم على صواب لأنّك صامت، ينتظرون منك أن تشكرهم؛ لأنّهم لم يركلوا جثتك إلى الهاوية، فتفعل لأنّك شخص متنازل تنظر للجهة الإيجابية دائما في أسوأ الأمور (أنت بخير بفضلهم). ولأنّهم لم يقتلوك تضلّ خائفا لبقية حياتك، خائفا أن تسقط، أن تُدفع، أن تُمحى دون أثر.

أي خير أنت به! أي وهم أقنعت نفسك به، لتهرب من المواجهة فضلت محو ذاتك، لا خير في الشعور بالقهر الدائم. شخصٌ لا يستحق الظلم - ظُلم- وهذا الشخص كان أنت. شخصٌ ينتمي إليك سوف يعاني ما عانيته وأنت عاجز كلّياً، لا تستطيع تحريك قدم والمضي لنجدته، أي خير هذا الذي تعيشه؟ الحقيقة نحن لسنا بخير والجميع يعلم.

ثم تدرك أنّك خائف وحسب من ثورانك، تذهب في طريق آخر، ترجو أن تحصل على شيء في نهايته، تغيّر كلّ شيء: طريقة تفكيرك، أهدافك، وترمي أحلامك، أنت الآن شخص بلا أحلام، أنت شخص خاسر، فاشل. يمضي العمر به وهو يتنقل من مكان إلى آخر يبحث عن العدالة المزعومة؛ لأنّنا لم نولد أسيادا في زمن العبودية، أصبحنا عبيدا، مقيدين، نجرّ أغلالنا خلفنا، ثم عندما نموت نورثها لأبنائنا كأنّها كنز ثمين.

لنشن حرباً، لا نريد لهذه الحياة الثمينة أن تضيع هكذا، كان يجب أن ننتزع من الظالم حقنا بمخالب أو بدونها، بقلم أو براية لا يهم ما دمنا مستمرين لن يضيع الحق ما دمنا نطالب به. ثابتين كجدار عملاق بُني من أفكار التحرر. من الذي حدد ما نكونه؟ من يعرفنا ليقيّمنا أكثر منّا؟ لماذا هم هناك ونحن هنا؟ لماذا بالأساس نتحمّل كلّ هذا ولا نصرخ، لا نحارب؟، هل لأنّنا نؤمن بأنّنا نستحق التهميش فنصمت؟ أم لأنّنا أذننا للباطل أن يكون حقا فكَان.

لماذا تنازل آبائنا عن حقهم وجعلوا الباطل يتراكم على رؤوسنا حتى فاق قدرتنا على تغييره؟ سوف يسألنا هذا السؤال أولادنا في المستقبل فبماذا سوف تجيبهم؟ لأنّي جبان! لن نكون بخير، حتى نتخلّى عن الرضا الذي يدفعنا لتصديق ما يسمى - واقع حال لا يمكن تغيره- لم يختر الله أن نكون

عبيدا، نرضى بكلّ شيء، لقد خُلقنا أحرارا نفكر، خلق لنا فم لنعترض. (وهبنا الله عقلا ولسانا لسبب)

ما لنا، سوف يعود لنا، فهذه ثورة ضد النفس؛ للانتصار يجب أن نغيّر أفكارنا أولا ولا نمثل دور الضحية التي قتلها الصياد وتناول لحمها، وبقيت الأغاني تمجّدها ولم تنصرها يوماً. لأنّنا لا نثق ببعضنا، لن نتحرك معاً، سوف يبقى أحدنا واقفا لوحده، ينتظر الآخرين ولكنهم لن يأتوا؛ لأنّهم خائفون أيضاً أن يتم التخلّي عنهم. لن يخبرك أي شخص متى تبدأ الحرب، لا تخف، تقدم أوّلاً؛ فأنت هو القائد الذي يقرر متى تبدأ الحرب، لا تكن تابعا بل كن السيدَ.

في المرّة الأخرى التي تنظر بها وراءك، سوف ترى الجميع يمشي على الطريق الذي رسمته أنت.

الفصل الرابع

-ليست للبيع-

عيناها تسهب بالأشياء، الفراغ يتوسط ملامحها الجميلة، دمية موضوعة على رف عتيق. كانت تأمل لو أنّها ولدت طفلاً بقدمين صغيرين وحرية مطلقة، ولكنّها خُلقت دمية للأسف الشديد. مجرّد دمية لا قلب لها. لم يُجد صانعها صنعها، مهملة على رف خشبي مغبّر، بينما اشتهر صانعها بأعماله الرائعة، والتي تُباع بأغلى الأسعار، وتأتي القوافل التجارية من بلاد بعيدة لأجل بضاعة من الدمى، وكان الصانع مشغولا طوال الوقت في ورشته القديمة.

كان يتبضع أجود أنواع الخشب وأكثرها لمعان وينقش العيون بدقة ويطليها بماء لماع زاهي لتظهر لك وكأنّها تحمل الدنيا داخلهما، كلّما صنع دمية وضعها على رف الدمى ثم لم تبرح ساعات حتى يأتِ مشترٍ ويأخذها أن لم تكن محجوزة قبل صناعتها حتى.

كانت الدمية هوبي تقفز فرحاً كلما جاء أحدهم الى الرف بنية شراء دمية، متخيلة أنّ التغير الذي تنتظره وأخيرا آت وأنّها لن تكون وحيدة بعد الآن، ولكنّها سرعان ما تحزن وتبتئس عندما يتم تجاهلها تماما وكأنّها غير

موجودة، ربما السبب أنّ صانعها علّق تحتها لافتة "ليست للبيع" وتقرر أخيرا ألّا تنتظر أي شيء، ولكنّها تعود للأمل.

كان بقاؤها وحيدة كعقاب، لما صانعها وضع تلك الوصمة عليها من دون الأخريات؟ لما هي من بين الجميع؟ كانت تتآكل على مرّ الزمان، ولكن هناك شيء ينبض بداخلها، يبث داخلها الحياة والأمل.

قالت بحزن وصوت كسير" ربما عيوني السبب فعيون كل الدمى الجديدة تلمع وتتوهج ببريق جميل بينما عيناي غائرة حزينة" ولكنّها غيّرت رأيها فقالت: " إنّ ملابسي هي السبب، الملابس التي أرتديها قديمة ومتسخة، بينما ملابس باقي الدمى مفعمة بالألوان".

حتى تولّدت فكرة داخلها بأنّها منبوذة، وكلّ يوم يمضي شعورها بالوحدة يزيد؛ لأنّها ليست بيد طفل، لا أحد يراها رغم أنّها موجودة طوال الوقت، ولا أحد يختارها.

في أحد الايام زار الصانع رجل طاعن في السن، منحني الظهر قليلا، له ذقن بيضاء طويلة، كان أحد تجار القرية وأغناهم، وقف أمام الدمية العتيقة، يحدّق بكلّ تفاصيلها، أدرك فورا كم أنّها مميزة وبها تفاصيل دقيقة أكثر من غيرها، ولكن كان عيبها الوحيد النظرة التي تتوسط عيناها وتعب ملامحها لقدم صنعها، ولرداءة مواد التصنيع، فهي لم تكن متقنة

الصنع، وتخمينه هذا ناتج عن خبرته الطويلة في مجال التجارة، فهو يعرف الأغراض الثمينة أينما كانت، ويحسن تقدير ثمنها.

سأل الرجل باستغراب "هل هذه الدمية من صنعك أيضاً؟" كان الصانع يعمل بجهد، منهمك بعمله فقال دون أن يزيح ناظريه عما أمامه "إنّها ليست للبيع،" ابتسم الرجل فتجمعت التجاعيد حول عيناه وفمه، فقال التاجر شبه ساخر وهو يغطي فمه بكف يده "أنا أعلم أنّها ليست للبيع، ولكنّها ليست للعرض كذلك، لماذا تضعها هنا؟"

وضع الصانع ما في يده ونَظر إلى الأشياء حوله بنفاذ بصيرة ثم قال بصرامة - يمكنك الانصراف لأنّ بضاعتك تنتهي الأسبوع القادم. استغرب الرجل كون الصانع تعصب من شيء مثل هذا. وضع الصانع دمية جديدة على الرف بجانبها تماما، أبتسم لها بشق فمه، بتوهج عيناه وقلبه "أضعك هنا، لأفتخر بك".

استغربت هوب كثيرا، وجالت بنظرها تائهة، تفكر في كلامه مليا ولكنّها لا تنكر أنها سعدت كونه لاحظ وجودها وأخيراً، ولكنّ سعادتها تلاشت عندما أخبرتها الدمية الجديدة: "لقد ضحك ساخرا منك، لقد وضعك كي يرى الفرق بعينه بين ما كان وما أصبح عليه، لابد أنّه مستغرب من نفسه كيف

لصانع دمى محترف ويمتلك موهبة كبيرة ووسيم مثله أن يصنع دمية قبيحة مثلك".

لماذا يبتسم إليها صانع محترف وجميل مثله؟ تزاحمت الأسئلة طوال الأسبوع الماضي في رأسها، لا تجد جوابا يرضيها، كلّ البراهين تؤيد صحة قول الدمية الجميلة "أنا لا أمتلك شيئا يؤهلني كي أكون محبوبة".

وفي صباح اليوم التالي، جاء التاجر لأخذ بضاعته ودفع أجرها ذهبا، كانت الدمى سعيدة وهي تباع بسعر أغلى، ليتها تصبح جميلة ليبهر بها الجميع ليتها لامعة وزاهية بالألوان ليتها أجادت الابتسام يوماً، ليتها واكبت الأزمان.

صوت تكسر صدر من الرف، أجزاء تناثرت على الارض، كانت أجزاؤها تتفتت يوماً بعد الآخر، شعرت بأنّها تتلاشى، تختفي. الدمى لا تبكي ولكنّها تمنت أن تبكي، موجة حزن ارتطمت بساحل صبرها، ما يواجهها أكبر ممّا تستطيع تجاهله.

تلك الليلة السماء أمطرت كثيرا، كان الصانع يخاف الرعد، ومضى زمن طويل لم يشهد رعدًا بهذه الشدة والقوة، السماء كانت تنتحب داخله من فرط الذكريات. دخل مرتعبا ليحتضن دميته بقوة، وركض إلى سريره عندما برقت النافذة بنور مخيف، تلاه صوت قوي، أمضى الليل وهو يدندن لها ويحتضنها ويعتني بها، وفي الصباح نظر لدميته بتمعن وقال

مبتسم "لَستِ للبيع وإن أعطوني قصورا، أموالا وذهبا، فهناك أشياء لا تقدّر بثمن، لن يأخذك أي أحد منّي" ثم أمسك المفك وبدأ بفتح أجزائها وصيانتها، قطعة قطعة، لم ينسَ شيئا.

"لأني قبيحة، لا أصلح أن يأخذني أحدهم، فأنا مليئة بالندوب، كلّ إنش من جسدي مشوّه، قلبي مجروح وعيناي بلا بريق، لا أحد يريدني لأنّي لا أجيد الابتسام، وبعض المرّات أعجز عن الشعور بأطرافي وأكون مخدرة بالكامل، ولا أرى ما أمامي من غواش الدّمعات، حتى أنّي مختلفة عن الأخريات؛ فليس هناك دمى بكت بقدري، أذهب لعالمي البني وأغرق في ذاتي ثم يساورني الشعور بأنّي أتلاشى وأنّي للضياع أهوي، لن أنتمي لشيء أبداً مهما حلمت، سوف أبقى مشوهه للأبد".

وعندما وصل لقلبها، فتح صدرها، ابتسم، كما وضعه وجده، قلبها الذهب كان يشع ببريق أخاذ، وينبض بصورة سريعة "أنت جميلة من الداخل أيضاً، جميلة جدا، صوت نبضات قلبك، تهرني دائما، تهدئ روعي، ترسلني للنعيم، تجعلني أحتار وأستغرب، كيف لصانع مثلي، أن يصنع جمالا مثل هذا، ومهما قالوا، فإنّي أتباهى بك بداخلي".

كم هو سيء أن يظن المرء أنّه منسي ومطوي بين صفحات السنوات، نزلت بضع دمعات من عيونها، تلاشى غلاف الحزن، وبرقت عيناها بنظرة زاهية جميلة لا مثيل لها بين جميع الدمى التي صنعها.

- أنت جميلة، وقوية، صديقتي التي تغيّر كلّ شيء عند حضورها، تحوّل خوفي أمان، أنا لست وحيد لأنّك معي فكيف تكوني وحيدة قربي؟

الدمى لا تبكي، لا تشعر، ولكنّك تملكين قلبا، قلبا من ذهب، وتشعرين وهذا قد يكون صعبا حتى بنسبة لبشري.

-رفيقتي الأبدية-

تشطرني وحدتي عندما أكون بينهم إلى ألف انفصام، أتساءل لما هناك فجوة في صدري؟ وكأنّي ثقب ما، كلّما شعر بالجوع التهم نفسه.

أتساءل إن كانت مكاناتي القديمة تتذكرني؟ إن كانت وحدتي المزعومة تعرفني؟

أنت، أيّها الغريب، يا من تنظر إلي الآن من السماء، تراني من بعيد بين العشرات سعيدا، هل تراني سعيدا حَقاً؟ انزل إلي، اقترب أكثر، سترى دمعة على طرف رمشي، لا تكترث لها، أنظر إلى يدي، ستراها ترتعش، هلا صافحتها؟

أيّها الغريب لا تدخل في عيني، سوف ترعبك أفكاري، ظلامي، ووحدتي التي لم تعتدها. ولكن إن قرّرت أن تكون كريما وتغوص في داخلي، فأستحلفك بالله أن تعذرني، على قلّة بهجتي، وسقم حالتي، فأنا مريض جداً وعلّتي في نفسي.

زخات المطر تعصف نافذتي من الخارج، هل تسمع صوت ضحكاتي خارج باب غرفتي؟، تصمت تلك الضحكة المزيفة عند دخولي، يُعلق بصري على شيء لا أعرفه ولا يعرفني ثم تنزل دمعاتي وأصاب بحمى الصمت؛ فأنا الآن أنظر للمطر من نافذة الغرفة التي لن تعرفني هي أيضاً.

ما يحزنني أكثر من غيره هو عندما أكون جالسا بين عائلتي أو أصدقائي، أضحك وأمزح، لحظة يتوقف كلّ شيء، يتلون عالمي بالأزرق ويهزني ارتجاف، ارتجاف عظيم ورغبة شديدة بالبكاء، فلا أعود أعرف أين أنا، هل أنا هنا الآن بينهم أم أنّي متخفٍ؟

ثم يترامى لي بأنّ أفضل خياراتي الهرب، فأهرب، أجري بكل ما أوتيت من قوّة، إلى باب غرفتي، ثم ما يبرح إلّا أن أصطدم بنفسي، ثم أفكر بجدية، أين أجد مكانا لا أرى نفسي به؟ لا أحد يَشعر، لا أحد يَهتم ولا أحد يسأل لما غادر؟ بينما ألتفت بكلّ اتجاه كالغريب أبحث عن وجه مألوف يحتضن هرعي، تركض إليّ الوحدة محتضنة إيّاي، كأنّها تعرفني. ما أحاول تجاهله ينهكني، محاط بالوحدة من كلّ جانب، أين ما أولي تتبعني، لم أعد أعرف ما خطبي. تقف الوحدة خلفي، تحتضنني، تلف مخالبها على خاصرتي ثم تقرّب وجهها من أذني وتهمس لي (أنا معك).

فجأة يصيبني الدوار، الجميع ينظر، لا أستطيع الانهيار، أرتجف كأنّي غصن ضعيف، يا لشفقتي على نفسي. تعيد الوحدة ترتيب خصلات شعري، فأتقهقر منها هاربا، أهرب مجدداً. أكثر شيء أمقته في الحياة، هو الهرب، الجري، والهلع ولكنّي لا أمتلك خيارا آخر.

أهرب إلى ذلك الباب مجدداً، عندما أصل أعاود الاصطدام بنفسي، تجذبني ذاتي إلى الأحضان لأوّل مرة منذ عرفتها، لا أراها تلومني، أو توبخني. أحاول الإفلات بما تبقى من قوتي، ولكنّي أستسلم، لن أستطيع الهرب أكثر، لن أستطيع الهرب مجدداً.

فتقول لي نفسي، بصوت مخنوق متحشرج "أنت لست وحيدا لأنّي معك، إن كرهتني وقرّرت الهروب، فأهرب إلى الله، أنت لست لوحدك، أنت محاط بالله من كل جانب، كل ما تحتاجه الآن، التوقف عن الهرب، فخير الأمور المواجهة، ثم الاعتراف بالألم خير من تجاهله. لن تموت أن بقيت وحيدا، تموت عندما تهزم من قبل الوحدة. أنصت لصوتي الضعيف، هل أنت وحيد حقاً كما تظن؟

"التشافي يبدأ من الداخل - د. بالمبر."

وقعت في بركة اشتياقي، لذاتٍ غير ذي ذاتي، لشخص أكونه في المعالي. كنت كبيرا لم ينضج، طفلاً حُرم عليه القفز، وما أكرهني لشخصي. مرتاع، وخائف أنظر خلفي، فلا أرى ظلي، أتلفت في كلّ اتجاه كضائع يبحث عن فسحة نور، ثم أدرك بيأس بأني أسير ظلي، حيث لا يوجد غير فسيفات من الأمل ووجهاً لا أستطيع تمييزه، قيل بأنّه وجهي. ثم أرفع رأسي عالياً للسماء صديقتي الوحيدة، ولكنّي الآن خائف من فكرة أن لا سماء هناك، وألا تكون سمائي غير فسحة لا متناهية من الظلام، وكلّ مناجاتي كانت هراء، فبدل أن تنتشلني الفكرة أغرقتني. أشعر بالعجز، وبعض المرات ينال منّي الصداع، تُحشر كلّ أفكاري في جبهتي، الواحدة تدفع الأخرى باتجاه مخرج مغلق، كالماء تريد الخروج من حنفية لا صمام لها.

أفكاري تثقلني، تجبرني على الخضوع، والانصياع لكلّ هذا السواد داخلي، ما هذا الذي يحرّكني؟ ألا شيء عبثي؛ أسقط جاثيا على ركبتاي، من ينقذني الآن؟ وقد نالني اليأس، كلّ شيء بلا معنى ومتناقض ومصيره إلى الزوال. فكلّما أعلنت أنّي اكتفيت، أسارع بإغماض عيني، أتخيلني نبتة تتجه نحو الضوء، يغمرني الحبور للحظة، ولكن سرعان ما يسري الألم في داخلي، كنهر ينحدر من الأعلى ويهوي إلى نهاية مجهولة، يسحبني من رأسي ويسقطني بين رواسبه.

تغريني فكرة إيجاد الحلول لمشاكلي، فأتحسس موضع الألم برقة، بأطراف أصابعي المرتخية فأراه أخذ يتمدد داخلي، وبدأ ينتشر بسرعة. لم أستطع أن أمسك الأمل، كان نهوضي يهدر لي كلّ طاقتي وكلّ محاولاتي التي باءت بالفشل، أصبحت تعيقني الآن. الغد لم يمضي، اليوم هو بقايا الأمس. اه وأدركت أن كل هذا الألم كنت انا من سببه لنفسي.

أركب رأسي على جثتي وأسير به كلّ يوم، بينما يتسلّقني المرض وكأنّه سرب من الأفاعي، تزحف إلى الأعلى بصمت شديد؛ فيصبح البؤس عمودي الفقري وكلّ عظامي. يجوّفني من رغبتي بالمواصلة، أعجز عن السير، أسقط داخلي مجدداً، ومجدداً يهزمني الواقع. نوبات الارتعاش تخض جمجمتي هزاً، تتمرجح آهاتي وصرخاتي ذهاباً وإيابا، كرهبة لملايين الأشخاص يركضون مَعاً في الشوارع المهجورة بلا هدف.

بعد نوبات الفزع تلك، أمسك يدي المرتعشة وأخبئها داخل صدري، فلا أشعر بنبضات قلبي فأنا ميت، أخرج يدي مرعوبا فأراها سوداء؛ ما هذا السواد يا ربي؟ من أين امتلأت بكلّ هذا الظلام؟ أنا بريء من نفسي، بريء من كلّ هذا السواد. أقف وأهرب، أجري وخلفي جيش من الأيادي السوداء يحاول سحبي وقد كتب على كل يد كذبة "أنت جبان، لا أحد يحبك، لا

تستحق العيش، لما لازلت تستيقظ كل صباح، حتى الله تخلى عنك، ما تريده لن تناله أبدا، لم يعد هناك شيء مهم، مُت".

مرعوب، خائف وكل شيء بي يستنجد، أيادي الظلام تسحبني من أقدامي إلى الموت، أتشبث بكلّ شيء، أريد النجاة أنا أيضا، لا تتخلى عني، أصرخ، أناجي نفسي، أنا أريد أن أحيا، أرجوك أنقذني.

عيناي تستنجد بالطريق وأصابع يدي تتمسك بالأرض، أظافري تُخْلَع، ودمي ينزف، بينما يحتك جسدي بالواقع بكلّ قسوة... ما فائدة العيش؟ لما لازلت أبحث عن أمل؟ لماذا أنا أتمسك بالحياة هكذا؟ كلّ محاولة تَمسك تقطع لي يدًا، كلّ المقاومات الفاشلة جعلتني أدرك بأنّ لا أمل هناك وأنّي لا أصلح للعيش، فماذا بعد الوصول غير الموت؟

لم يكن من الصائب أن أتمسك، كان يجب أن أتخلّى عن نفسي وأتركها تهوي إلى العذاب الأبدي. هذا الصخب سوف ينتهي بهدوء البؤس والخضوع التام لمهزلة البقاء والنصر.

بالحديث عن ذاتي، لطالما رأيته يموت في عيناي، رأيت الظلام يلتهمه ألف مرّة ولكنّه لم يكن يخبر أي شخص، ربما لأنّه كان واثق أنّي سوف أخرجه من هناك، كان يصرخ، يستنجد بي متوسلا "لا تتخلَّ عنّي".

لم أفعل شيء من أجله، التهمني الموت وها أنا أكتب رسالة انتحاري الأخيرة، لقد تخلّيت عن نفسي، خذلتها؛ من المؤسف أن يدفع شخصاً نفسه للهاوية بكلّ رضى، وكأنّه لم يكن يملك سوى طريق واحد للعيش. لم أسجل تاريخ موتي ولكن مضى زمن طويل منذ وقعت ولم أقف. حزمت كل خيباتي، وحشرتها في قلبٍ عقيم وسافرت في ظلامي. لم أكن بخير ولكن حالي لم يعد يهم، فذلك الشخص لا زال يموت مرّة تلو الأخرى، أشعر به بداخلي، يحاول إيجاد الانتماء.

من الذي قال إنّ تعوّد الألم يمحيه. بعد أن سجنته داخل فكرة، داخل خوف، اضحى يسقط كلّ ليلة... اسمعوا، هل تسمعون صوت الارتطام وتكسر العظام؟ إنّه له، والمصيبة أن لا أحد يسمعه غيري.

في كل خطوة أتمنى ألّا أخطو. لا مستقبل لي ولا ماضٍ، لا أستحق العيش؛ لأنّي لا أعلم ماذا أريد، لا طريق، لا وجهة، فإلى أين أريد الوصول؟ وجدت في رحلتي، غرفة مغلقة، لقد رأيت شخصاً يشبهني، يمتلك وجهي، ملامحي، لقد وجدت نفسي. كان يرقد على سرير العجز، مكبّل الأطراف بأشرطة حمراء، يرتدي الأبيض، كان ما تحت عيناه مسود ووجهه شاحب شحوب الموتى، قال لي بوهن "لا تتخلّى عنّي" بصوت هادر خفيف، الصوت الذي لطالما سمعته، فعرفت من يكون... إنّه أنا.

لذلك هو يموت كلّ يوم، لكي أنقذه في يوم ما، كانت الجريمة التي تُقترف في هذه النفس. أن يضيع كلّ هذا الألم سدى، أن ينتشر في الكون دون أن يُرى، أن يعيش صاحبه في الدجى، توقف كلّ شيء تلك اللّحظة.

مددت يدي داخل صدري قررت أن أسحبه من هناك، لما لا أدعه يخرج؟، يستحق أن يكون حراً، ذلك الشخص، يستحق العيش ومن الغريب أني كنت أريد أن أكون سعيداً وانا أتجاهل ذاتي المسجونة في الظلام.

أنا لا أستحق أن تتم مقارنتي بأحدهم...

هل تعرف يا صديقي شخصاً يخبرك بأنّك أقلّ من غيرك؟، طفلا يستمر بالبكاء، يريد عالم صالح للعيش ولكنّك لا تملك غير الحطام منزلاً تقدّمه له.

شعور ينظر إليك باشمئزاز وكأنّك طفيلي، لا تستطيع العيش بمفردك، لا تمتلك منزلا لتذهب إليه، لا تمتلك اي شيء في هذا العالم، ولا حتى الأفكار التي بعقلك، أو تلك الملابس التي تغطي جسدك. تمتص البؤس من الذين بجانبك، تستمر بالكسل، تتلون بالأسود، وتختنق تحت أكوام من التلاشي.

يكون الطريق جميلا عندما تركض وتركز على حذائك، عندما ترفع نظرك، تكتشف بأنّك لا تعلم إلى أين أنت ذاهب، فتتوقف سريعاً وتبقى حيث أنت، لن تستطيع المواصلة بعدها أبداً ولا حتى العودة.

أشعر بالحزن، لا يمكنني تقديم أكثر من هذا ولا يمكنني أن أتراجع، أشعر بأنّي أضحوكة، أسخر من نفسي كثيراً هذه الأيام، من أحلامي، كم هي كبيرة، بينما أنا لا أتجرأ حتى على أن أقولها للذين هم حولي. تلك الأحلام، لم تخلق لشخصا، لا يعلم أين سيذهب، وإن علم بالوجهة، ارتعشت قدماه خوفا.

يقولون لي استمر، سوف تصل، أنت على حافة الإبداع والنجاح، ولكن لا شيء هناك مهما استمررت، في بعض المرات أشعر أنّي داخل كابوس، أبحث داخله عن شيء لا أعلم ما هو.

صوت يناديني من البعيد لا أعلم لمن، أهرب منه فأجدني أسمعه. أينما ذهبت يقولون لي: أنت جيد، ولكنّي لا أصدقهم، هم لا يعرفون شيء، هم لا يعرفونني، وأنا ما عدت أعرف نفسي، كم أود أن أصدقهم أو أصدق نفسي لعلي أتوقف عن الشك، وأتيقن من أنّي شخص فاشل.

أنا أتألم، ما بين الحلم واليأس، ما بين الواقع والحلم. كم أود أن أنسحب الآن وللأبد، وأكمل تلك التسلسلات المتواصلة من التنازلات، التي جعلتني شخصا فاشلا مثل ما أنا عليه دائماً.

وربما أنا شخص فاشل بسبب التنازل الكبير الذي قدمته، وبسبب تلك المرة التي قبلت بها بشيء استحق أفضل منه. ذلك الشعور أنا أكثر من عرفه، وأنا من حاول بكلّ قوته أن يحاربه، ولكنّي اكتشف أنّه ليس شعور، انما هو رأسي، فاستسلمت، كيف يحطم المرء رأسه؟

أنا لا استحق أن يتم مقارنتي بأحد؛ لأنّي لا أحد، هذا ما كنت سأقوله لنفسي إن قابلتها يوماً، أريد أن أقتلها فور أن تولد، لكيلا أكون هنا.

أغلق فم ذلك الصغير الباكي، وأخبره بحده "لن تبكي مجدداً، صدقني، لن تتألم، لن تكون وحيدا، ولن يخذلك صديقك المفضل."

أريد أن أكون صوته ودمعته الأخيرة. أريد أن أكون وأمه وأباه، أن أنظر إليه وكأنّه تحفتي الفنية، أخاف أن يغفو فتنطوي أحد أحلامه، أن أراكم كلّ السعادة خارج باب غرفته، وأن أفرش الطريق بالأصدقاء الصادقين، وأمحي اول مرّة خذلته بها.

ولكنّي أخشى ...ألا يعلم، أنّ ما قدمته أنا له، هي السعادة ليذهب للبحث عنها بالخارج، أخشى أن أمنحه النور، فيتعلّق بالظلام. أخشى ألا يقدّر الاصدقاء كما يفعل الآن، ويبادر هو بجرحهم وخذلهم. أخشى أن يفقد شعوره بغيره إن هو لم يتألم، أن يجد الأصدقاء فيترك ربّه، ألّا يحتاج فلا يمد العون، ألّا يبكي فيختنق، ألا يجد الأسباب ليبكي، فينفجر قهراً. ألا يعلم أبداً كم سعيت لسعادته، ويظن بأنّي سجنه فيحاول الهرب منّي إلى أعدائه.

لذلك تركت ذلك الطفل يكبر لكي يكون مثلي، أنا هو أنا، الطفل الكبير، ويجب أن أرجع إلى نفسي بسرعة فالوعد الذي قُطعته للصغير بأنّه لن يكون وحيدا، لن يعيش متألما، أو حزينا، وبأنّه لن يبكي مجدداً، ذلك وعد كاذب، لن أعده حياة سهلة يسيرة.

ولكنّي سوف أعده ألف مرة وبالثقة ذاتها - بأنك تستطيع - يا صغيري أن تكون ما تريد، اليوم او غداً، فقط لا تتخلى عن أحلامك، وكن أنت لأنّك تريد ذلك.

***

أشياء جميلة تحدث من حولك، وهي كافية لتجعلك قوياً مثل كونك لست وحيدا، وإن هجرت العالم بقي الله معك... {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ} [البقرة:186] {وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ} [ق: 6].

الفصل الخامس

-الفتى الذي التهمته ذكراه-

كان عند الباب صندوق محكم الإغلاق، مَربع الشَكل وكان داخل المَنزل طَفل بَكاء، يَسيل من أنفه المخاط، ومن عيناه الدمع، وعندما سمع رنة الباب، توسعت عيناه الصغيرتان المحمرتان، وأخذ يَدعكهما بقبضاته الصغيرة بكلّ لطف، شد انتباهه الشيء القادم من الخارج.

وضعت الأم الهاتف على المنضدة، كانت كَسراب أو أحد تلك الأشباح في القصص الخيالية -لا تَنظر ولا تَلتفت- وبأقدامها الحَافية خَطت عَلى البلاط البارد، كانت أقدامها تترك أثر عندما تسير، خطوة تلو خطوة تصبح أبطأ، فاضت الدماء من موضع أقدامها، فتحت الأم الباب، صوت صرير الباب المزعج، والظلام الذي خلف الباب وكأنّه الفضاء، وجدت صندوقا أمام مدخل المنزل ولكنّها استدارت بجذعها العلوي فقط نحو الطفل، ابتسمت في وجهه ثم تسلل الخوف إلى المنزل، وكشر عن أنيابه في وجه الصغير. انحنت نحو الصندوق، ولفت ذراعاها حوله، ولكنّها عجزت عن حمله.

وجه الطفل تجعد، مرتعبا وخائفا، ثم شعر بقلق رهيب وبدأ بالبكاء، بل أصبح يصرخ بكلّ ما أوتي من صوت، ولكنّه لم يسمع صوته أبدا. أصبح

العالم فوضويا كثيرا في الآونة الأخيرة، ذلك الشعور المعزز بعدم الأمان. استيقظ محمد مفزوعا بعد تلك الذكرى التي غيّرت حياته رغم أنها مضت منذ زمن إلا أنّه لا زال يرى نفسه الصغيرة مرتعبة لغاية الآن.

بينما لازالت أنظاره تتجه للجانب المشرق كما يقولون، لازال قلبه ملبدا بالغيوم الداكنة، بعض المرات يشعر بأنّه يكشِف عن حقيقته أمام نفسه ويتجرّد من كلّ الأمان المزيّف الذي يعيشه، بعد حادثة مقتل الناشطان بعمل إرهابي (والديه)، كان دوما يسأل طبيبه الخاص كيف نجوت وسط تلك الفوضى؟

سألهُ طبيبه يوما ما، خلال أحد جلسات العلاج، لما تظن أنّك نجوت بينما جميع أفراد أسرتك قد مات؟، زم شفتاه وتاه في السؤال لبرهة، لا يظن أبدا أنّه نجى لأنّه يستحق أن يعيش، بل ربما لأنّه لا يستحق أن يعيش مع شخصان لطيفان مثلهما، ربما هي لعنة، إنّه قدري المأساوي أيها الطبيب وماذا غيره؟، تهرب من النظر الى وجه طبيبه، فأخذ القلم ليخربش على الوصفة القديمة التي كتبها طبيبه له الشهر الفائت.

أخرجه عن انشغاله الوهمي صوت الطبيب وهو يقول: بل أنت تعيش لأنّ والدتك ضحت بحياتها من أجلك ثم ختم جلسته. بينما محمد لم يفكر أبدا من قبل بهذا، لماذا قد يموت شخص ما في سبيل شخص آخر؟

التصقت تلك الفكرة في عقله، كانت تراوده أثناء عمله، وأثناء راحته، كان متعبا بسبب الكوابيس وتلك الأفكار والذكريات، تأتي والدته إلى حلمه، ثم يأتي قدره السيء فيهرب هو من تلك الكوابيس، فيستيقظ وكأنّه جرى ألف ميل "متعبا وخائرَ القوى يا الله، من كلّ تلك الذكريات المؤلمة، أتمنى لو أستطيع نسيان كلّ شيء والبدء من جديد".

صندوق كبير أمام الباب، بداخله شيء مظلم ومخيف، طفل يبكي لأنّه يشعر بعدم الامان والقلق، خطوات بطيئة تتجه لفتح الباب، ماذا كان داخل الصندوق؟، خوف، قلق، هناك حرقة في معدة الطفل محمد، ثم شعور بالغثيان تلاه صوت رهيب كانفجار ليستيقظ فزعا مجددا، هل جرّبت أن تستيقظ من حلم ما فتشتهي البكاء، فتبكي حتى الصباح؛ لأنّك تعبت من مضي كلّ شيء داخلك بذات الخوف، ذات الرعب، مجددا ومجددا، تشعر بأنّك محاصر داخل صندوق مغلق. الجلسة الرابعة لمحمد عند طبيبه، لقد نفذ منه الدواء، وأصبح لا ينام إلّا نادرا، جالس على الكرسي وأمامه مكتب يجلس خلفه الطبيب، يخجل محمد من زملائه في العمل، لذلك قال لهم بأنّه يعاني من اتواء كاحله. يهز قدميه بتوتر، تحت عيناه جيوب سوداء، وعقله مشوش جدا، الطريقة الوحيدة للعلاج بني أن تجد باب الخروج، ابتسامة استهزاء لاحت على فم محمد كردة فعل على كلام الطبيب، ولكنّه أخفاها بإخفاض رأسه، ينظف أظافره من

الغبار، ليكمل الطبيب كلامه بقلّة ثقة "تكمل ذلك الكابوس حتى النهاية، أنت لن تستطيع تغييره، يجب ألّا تحاول أن تغير شيئا ما، رغبتك تلك تعيد الحدث وتتوقع منك أن تغيّره، يجب أن تواجهه، أن تنهي الموقف وتبكيه، هل تعلم ما أكثر شيء صعب بهذا الأمر؟ - صمت قليلا ثم أكمل - أن لا باب هناك، أنت بالداخل وحدك، والباب هو شيء وحدك من يستطيع إيجاده.

"إذا؟ لن تكتب لي في الوصفة بعض المنوم؟". لا، ليس هناك منومات لك، اذهب الآن.

"هل تأخذ المال ثم تتفوه بأشياء مثل هذه وكأنّك حكيم زمانك، أنت دجال وحسب". نهض محمد حانقا ومنزعجا، وتوعد بأنّه سوف يشتكيه قريبا. رفع أكمامه، غسل وجهه بالماء البارد، وذهب ليقرأ بعض الكتب، ولكنّه غفا بالخطأ، سمع صوت الجرس يرن، شعور بعدم الراحة والقلق اجتاح صدره وبدأ جبينه يتصبب عرقا، لا يستطيع البكاء، لا يستطيع الكلام، ولا يستطيع إيقاف ما سوف يحدث مهما أعاده، فم والدته يبتسم ولكن لما لا يستطيع أن يرى ما تبقى من وجهها، يشعر بالإعياء فجأة، والدته تسير للباب، تتلفت في الاتجاهات مستغربة، تلتفت نحو الصغير برعب

هذه المرة، كلّ الذكريات مشوشة، الصغير لا يتذكر كلّ شيء، لا يتذكر سوى رعب تلك الليلة، وابتسامة والدته له.

فتحت الصندوق وإذا بها تعود راكضة لتحمل الصغير تحت إبطها، لتجري به نحو الواحة الخلفية وإذا بها ترميه من باب الفناء لأبعد ما يكون، فإذا بانفجار كبير يلتهم الجزء الأمامي من المنزل، النار تقترب، الأم تتلاشى داخل النيران، تتجاوزها النيران وتنقذف بعض الشظايا باتجاه الطفل، الطفل ينسى ألم الارتطام، يوشك قلبه أن يتوقف من هرعه. يدفع الضغط الهائل جسد الصغير للخلف، يفقد جزء من وعيه، ذراعه منطوية للخلف، وأحد أصابعه قد كسر، صوت صافرات الشرطة، وكلام حشد من الناس، هناك شيء في يده، شيء ما عالق في يده، ما هو؟

استيقظ محمد هذه المرة يبكي، انتحب بصوت عال، كطفل صغير، واضع رأسه بين كفاه، نظر إلى كف يده، لقد كانت هنا، لقد كنت أمسك به حتماً، جزء من جسد والدتي المحترق، الذي انتشر في الفناء المحطم، كانت بجانبي، ولكنّها لم تكن قطعة واحدة. لا يمكنني نسيان الماضي، ولكنّي لن أجعله يؤثر علي مجددا، أمي معي، أنا احملها في قلبي، يكفي للفلم الذي يعرض كلّ ليلة، لقد اكتفيت منه، إنّه ماض قد رحل، سوف أعيش بالغد، بلا أجزاء عالقة في يدي من الماضي.

الجزء السادس

الشجرة التي حلمت بالطيران

شجرة متينة مثلها لن تشعر بالوحدة أبدا، لقد كانت شجرة سعيدة، حقيقية. ووجودها يمتد منذ آلاف السنوات، يأتي الناس إليها ليجلسوا تحت ظلّها، ليضحكوا ويعيشوا يوما جميلا هادئا. كانت الطيور تبني أعشاشها فوق أغصانها، وتأكل من ثمارها، كان الجميع سعيدا، يشكرون الشجرة ويقدسونها، فإذا بها تصبح أسعد شجرة بالعالم. يا لها من شجرة محظوظة، لديها كلّ ما ترغب به، يحبها الجميع، تساعد كلّ الناس بابتسامة، ولديها أوراق خضراء كثيرة وزهور ملوّنة يا لجمالها.

وفي أحد أيام الخريف، بينما تنظر الشجرة للطيور المهاجرة بالسماء، تمنّت الشجرة أمنية لم يسبق أن تمنتها شجرة قبلها، هي أمنية محرمة ويستحيل حدوثها خارج نطاق الطبيعة ومثيرة للسخرية، تمنت أن تحلّق. أن تبتعد وتهاجر، أن تترك هذه الأرض إلى الأبد، وتساءلت إن كان هذا الذي تعيشه قد جعلها سعيدة حقا، أرادت أن تخرج لتعرف الإجابة.

ولكن الأماني تبقى أماني، وبقيت تسلي نفسها بالأحلام، وانتظار المعجزة. يوم بعد يوم أصبحت اوراقها صفراء وتساقطت. أصبحت أغصانها عارية، وقد بان عليها الكبر والبؤس. تنظر للطيور وتقول "لما لم أخلق طيرا؟، لما

أنا عالقة بهذه الأرض، أريد أن أسافر، أن أكون حرة، أذهب إلى حيث أريد".

بقيت وحيدة، هجرها الإنس والطير، أضحت تعيسة وحزينة. سقط عصفور صغير بجانب جذعها المتين. سحب الصغير جسده واختبأ تحتها، ثم نظر إلى الاعلى بحزن وقال "يا ليتني قوي كبير، ولا أجبر على الهجرة، يا ليتني جلست على الأرض ووضعت جذوري عميقا، ليتني لا أمتلك أجنحة رقيقة وعظام هشة". ثم قال معترضا وهو يوشك على البكاء" ليتني مثلك أيتها الشجرة، لماذا لم أخلق شجرة سميكة ثابته وقوية، تسعد الناس، تظلهم وتمنحهم الثمار، عندها سوف أكون سعيدا للغاية".

فقالت له الشجرة تَعِضُه وتواسيه بعدما أخفضت غصنها إليه لتلتقطه من الأرض: "السعادة أن تكون راضيا عن نفسك، أن تقبل الهدية من الخالق، أن تقدّر حياتك. قد تكون طيرا وأكون شجرةً، ولكنّنا من دون تفرقة قد أخذنا شيئا ثمينا من الله وفقدنا شيئا. لقد أخذوا منك مسكنك وأخذو منّي حرّيتي، أنا أتمنّى ما تملكه وأنت تتمنى ما أملكه. كلانا ينقصه شيء، لا يمكن للمعجزات آن تحلّ لتغيّر القوانين".

ثم حملته إلى الأعلى، فقال لها مستغربا "ألم تحلمي من قبل بشيء لن يحدث، مهما بذلتي من جهد؟" ضحكت الشجرة ثم قالت "بلى، لقد حلمت

أن أصبح عصفورا ولكنّي الآن سعيدة بنفسي، وأحبها أكثر كما هي. لتبقى هذا الشتاء معي تصف لي الحياة بالخارج" احتضنها بسعادة ثم استفسر قائلا: "ولكنّي أحتاج للدفء والغذاء أيتها الشجرة".

"لقد تعلّمت الدرس، حزني قد أبعد الجميع عنّي عندما شعرت بالوحدة، هجرتني كلّ أشكال الحياة، وكان هناك زوجين من السناجب يعيشان بالأعلى ويجمعان الغذاء للشتاء ولكنّهما قد هاجرا أيضا. هناك ثقوب كثيرة بداخلي، يمكنك أن تحيا بداخلي أيّها الصغير، وأعدك بأنّي لن أتذمر مجددا وسوف أكون سعيدة بوجودك".

-تَمرد-

أردت ان اكون شخص جيد، ولكني لا أستطيع. قيل لي تمرد، ولكني لا أستطيع ايضا. احاول ان أبدو صلب، ولكني لا أستطيع فعل هذا أيضا. وكم هو سيء، ان تكون لوحدك بالكامل. كلهم وجوه لا أستطيع تذكرها عندما أغمض عيناي. ارى الكوابيس وأتساءل ان كان أحدهم قد تمنى لي "احلاما سعيدة".

أريد ان اتمرد ولكني أتذكر اننا نفتقر الى الكثير، لنصبح ما نريد. هاوية مظلمة تفصل ذواتنا الحقيقية عما نريد ان نكونه، لهذا نحن نعيش في الاحلام. لقد سألت دوما من انا؟ ولكني لا أحد، هذا ليس مكاني، هؤلاء الناس ليسوا اناسي، هذا الجسد غريب عني، وكم هو ثقيل ان احمل كل هذه الاشياء -التي ليست لي وكأنها تخصني- وهذا الادعاء الكاذب مؤلم. سواء اردت او لم أرد، كان لا بد للأحداث ان تحدث هكذا، كان لابد ان اتعلم متأخر، ان أجثو امام البؤس ألف مرة قبل ان أجد نفسي، نعم لا بد للأشياء ان تسير هكذا، سواء اعجبني او لم يعجبني، ما يختلف في كل مرة، ردة فعلي.

ان شخصيات القصة هم شخصيات حقيقية، لا تخلق، انما يتم اكتشافها، يتم وضعها في حدث لمعرفة ميولها، وردة فعلها هذا ما تعلمته

من الروايات. وهذا ما يحدث هنا، انا متعب من ردود الأفعال التي قد تكون ليست ملكي هي أيضا، أريد ان اتمرد. قد اكون شخص سيء، محمل بالذنب، اسف على كل الاشياء التي حدثت بأراداته وتلك التي حدثت رغماً عنه، والأخرى التي بقى ينظر دون ان يضع يدا واحدة لتغييرها.

لقد بكيت، حتى سقط جبيني يلامس الارض، راكع بخشوع، واعتصر روحي كقطعة قماش مبللة يُراد تجفيفها، وعندما رفعت رأسي، عادت الدموع التي كانت تبلل شعري الى اسفل ذقني، رأسي الثقيل، ومعدتي المضطربة التي توشك على الخروج من فمي، لم أستطع ان افهم، كيف وصلت لهذه الحالة وانا التي ظننت أنى بخير طوال هذه الايام، الان ألا أدركت باني لم أكن بخير ابداً. وهكذا، تحققت شكوكي، كنت متأكد ان هناك خطب ما بي ولكني لم اعرف ما هو، كان كل شيء يبدو طبيعي، اسير مثلهم وأكل بنهم وانام واضحك بصوت عالي ولكني كنت اشعر بالحرقة، والاستياء، والكره المبالغ به تجاه كل الاشياء، كنت لا اشعر بالأشياء التي كنت استمتع بها؛ الان بت اعلم، أنى لم أكن بخير، وكبتي لهذا الالم كاد ان يجعلني انفجر الى اشلاء تم جمعها من انفجار وسط سوق المدينة. كم هو مريح، ان تتكلم مع نفسك وكأنها شخص اخر، وتتصرف معها على هذا الأساس، لتفهم حقا، لماذا تفكر هكذا، ولماذا انت غاضب، وما الذي يفيدك الان. كان التمرد، ان الا اكابر أكثر، ان ادع نفسي تعترف باني

مخطأ، ان انهار على سبيل التغيير، ان اعود لحب الأشياء والاستمتاع بالأشياء التي فقدت لذتها في فمي، انا أريد ان أعيش وهذا مالم يسبق لي ان اعترفت به لنفسي.

الفصل السابع

زكام

قد يكون الموت خوفا، قد يكون شخصا، ولكنّه لن يكون أبداً خلاصا. الموت انسحاب الروح بعد أن كرهت التواجد داخل عالم مظلم وجسد متعفن بالدين والتقاليد، تقول أمي بسخط لما يا ولدي حدت عن الطريق الصحيح؟ لما تركت الرب؟ لما تحاول اتباع خطوات الشيطان؟

لم أستطع إخبارها أنّي لا أؤمن أبداً أنّ الطريق إلى الله قد صنع لي، ولم أكن متأكدا من أنّه طريق الصواب، فكيف يكون الطريق الذي يسير به قاتل صحيحا؟ هل يتوجب أن نسير معاً بحب؟، الضحية والجاني جنباً إلى جنب.

لم أستطع إخبارها أنّ الرب هو من تركني أولاً، تركني في الظلام وبين كلّ من يدعي أنّه مسلم، كان موضع الألم في القلب، في محبة الرب وفي كلّ الإيمان الذي كنت أملكه، كان ينسحب من بين أصابعي شيئا فشيئا حتى تساقطت قطرات من دمي على الأرض، قطرات عرق وبكاء، قطرات خوف وذل.

لم يكن الله معنا يا أماه، لقد خذلنا الرب. ولأنّي لم أستطع اتباع خطوات الشيطان حدت عن الطريق، كي لا أجتمع معهم فإن كانوا في الجنّة فأنا

أرغب بالجحيم، لم أعد أتحمل أن نُجمع تحت سماء واحدة بعد الآن، أنا وداعش دولة الإسلام، لا أريد أن نجتمع أبداً بعد اليوم.

كان الوضع سيئا ونحن تحت أكوام من الكذب والزيف، ونحن تحت غطاء ذا وجه واحد، احترقت الجيوش، ذُبِح الرجال، تَشرّدت الحَشود، وتَفرّقت العوائل، وكلّ هذا كان يحدث والله قد رآه جميعه، كيف سمح به؟، كان يمتلك القوة لتغييره. حكم داعش قد سلبني أبي، وأخواي اللذين يكبرانني بالعمر.

السبب الوحيد في كوني حيا، هو كوني قاصرا، وهم لا يقتلون النساء والأطفال. ما رأيته تمنيت لو متت ولم أره، الضرب الذي تعرّضت له، بينما أرى أمي يُعتدى عليها، كانت تتوسل بي أمي أن اصمت يا ولدي، فالله قد قرّر، والله يفعل ما يشاء، كيف يرضى الله أن يخذل شخصا قد آمن به كلّ هذا الإيمان؟

تمرّ الجثث كلّ يوم من أمام المنزل، وأمي قد نبذت الحياة، فقدت كلّ ما ملكت، كانت مؤمنة وهذا ما جعلني حاقدا، كانت تتجنّب الخروج من المنزل، كانت خائفة، وكانت تقول لي دوما "اصبر فهناك أبطال قادمين لإنقاذنا قد بعثهم الله"، وكنّا نتشاجر حول هذا الأمر كثيرا، أقنعها بالهرب

فتقول لن أترك أرضي وأهرب، فأقول لها بصوت عال ونبرة حادة وقد نفذ صبري، ليس هناك من هم قادمين لنجدتنا، ولكنّها لم تصدّقني.

وفي يوم ما ضقت ضرعا وخرجت مع المقاومة لتحرير أرضي، كنت أصغرهم عمرا، وأكثرهم تهوّرا، تركت أمي خلفي، تخلّيت عنها. وبعد العديد من الانتصارات بعد أن قتلت منهم العديد، قد اخرجت بعض الكره الذي كان في جعبتي، لم أكن خائفا من الموت، كانت القنابل تنفجر بجانبي، كانت أشلاء الجثث تتبعثر فوقي، ولكنّي لازلت موجود حتى قيل لي بأنّهم ذاهبين لتحرير المنطقة التي تسكن بها أمي، لم أتردد ساعة واحدة وذهبت معهم أملا في لقاء أمي مجددا، وتخليصها من كلّ هذا.

أردت أن أخبرها بأنّ الأبطال الذين آمنتِ بهم يا أماه ها هم قادمون لنجدتك. ولكنّي عندما وصلت لم أجدها، عدت للمنزل للإنقاذ أمي، ولكنّها لم تكن هناك، من أنقذ الآن؟ وها أنا الآن، في شدّة البؤس أصوّب المسدس على جبيني، أتنفس بصعوبة، أغمضت عيني، كلّ ما بي يرتجف، هل أنا خائف من الله أو أنا غاضب، ضغطت على الزناد ولكنّه كان سلاحا بلا رصاص، لقد مُنِحت فرصة أخرى للعيش.

دخل قيس إلى المنزل يهرول، يزف خبر استشهاد قائد الدولة الإسلامية الذي لطالما انتظرنا هذه اللّحظة من التحرير الكامل. مع هؤلاء الرفقاء

الذين أتوا من أماكن بعيدة لنصرتنا، فوجدني هكذا، تسمّر مكانه، مترددا لا يعلم هل يعود أم يتقرب لمنعي، وإذ به بحركة تكاد تكون جنونا كاملا يخرج مخزنا ممتلئا بالرّصاص من جيبه ويمدّه باتجاهي تحت استغرابي ونظراتي المستفهمة "إن كنت سوف تموت يا رفيقي، فلا تمت عبثا، بالمناسبة هل تعرف أين دفنت والدتك؟".

ثم ابتسم لي بانكسار، وغادر يهرول، تباردت بذهني تلك المرة التي قال لي بها "لقد فقدت عائلتي، وأنا ابن الحادية عشر، لقد احترق منزلي، وتشرّدت من مكان لآخر، وأردت أن أموت، ولكنّي وجدت ضالتي في الاستشهاد إن كتب الله لي، رحلت وأنا سعيد أزف خبر استشهادي الى عائلتي في الجنة وإلا؛ لن أجد نفرا منهم يستقبلني هناك".

وبعد أن جمعت شجاعتي، زرت قبر أمي بمفردي، وأخذت أناجي الله، هل وصلت أمي إليك؟ لابد أنّها بجانبك، هذا ما كانت تتمناه أمي دوما، أن تكون بقربك، لقد حققت لها ما تريد، ولكن يا الله، هل لك أن تجيبني عن أسئلتي، لماذا حدث كلّ هذا؟ هل كانت فتنة، هل كان عقابا أم ابتلاءً تختبرنا به، نحن الذين اتهمناك باطلا، بأنّك ظالم غير عادل، لابد أني قد فشلت، لم أؤمن بك، ولكنّي نادم. عندما مد لي قيس يده، شعرت بأنّك أنت من بعثه، هل هذه طريقتك في إرجاعي؟، كنت تستطيع أن تنتقم منّي،

أن تجعل تلك الطلقة التي ضربت جبين رفيقي تسكن رأسي، هل تعمدت أن تنقذني؟، لأجل أن أتألم؟، هل تحمّل الألم هو الاختبار الحقيقي؟

وكانت صدمتي الكبيرة تلك اللّحظة ما وجدته بجانب قبر أمي، اطلب الصفح منها. فتحت الورقة وأنا أرتجف: "لقد علمت بأنّك سوف تعود، عندما تعود لن تجدني، ولكن لا بأس فأنا الآن في مكان مريح وآمن، بجانب من أحب، بجانب أبيك وإخوتك، ننتظرك في الجنّة، فلا تتأخر؛ لا تعش بطيش؛ لأنّك سوف تعيش مرة واحدة، وسوف تموت مرة واحدة، عش كلّ لحظة، اعطِ الحب لغيرك واسعَ في رضى الله، واعلم يا ولدي لو كانت الدنيا بلا حروب وبلا ألم لأصبحت جنة".

-فراشات-

تلتف حولي الفراشات البيضاء، تغطي جسدي، تدخل فمي، وتتموضع على عينياي، وتسد اذناي، وكأنها كفن أبيض، يربطني وانا الذي يتصنم كأنه قبر منتصب.

أنا محاطة بالأشباح، المَنازل مَن بَعِيد، بِين طَيات اَللَّيْل، تَبدو وَكأنهَا مُجَسِّم مَن وَرَق مُقَوَّى، ذَاك اَلْمُجَسِّم القَابل لِلطَّوَي. نَعم تَبدو نظرتي هَكذا، وأنا اِعْتَذَرَ عَلى اَلْوَصْف السيئ. فِي عَيْنِي، تَلك الأنوار، تَلك اَلتَّرَاكُمَات للعَالم، تبدو مُفتعلة. وكَأن اَلْبُيُوت بُني أحدها خَلف/ فوق الآخر مباشراً، دون فواصل، دون أبواب للدخول ولا حتى للخروج. عندما تبدأ الأضواء تنطفئ، تنطفئ دفعة واحدة، يبقى منزل واحد مضاء، لماذا؟ لا أفهم. مَن الذي اختار هذا المنزل بالذات؟ لمَاذا طَرِيق اَلسَّيَّارَات يَبْدُو وكأنه بساط طويل فُرش على السطوح المتصلة. من رأس مَنزل لأخر، وَالسَّيَّارَات الطويلة والمضيئة كَقوافل لا تَنتهي، تَعبر إلى اَلْجِهَة الأخرى، اَلَّتِي لا أَسْتَطِيع أن أراها، لذلك فقط يُخيل لي بأن أحدهم سوف يحتضنها بِيَدِهِ ويَرفعها عَن المضمار، ثَم يُعيد وضَعها في بداية الطريق مجددا. لماذا يَبدون اَلنَّاس كَالدمى المُختبئة في مَنَازِلهِمْ، مِمَّا هم خائفين؟ أن تباين حقيقتهم مثلا أو أن تتقوس ظهورهم الورقية؟ وعلي الرغم من أنهم مزيفين بالكامل؟ لماذا

إذاً أصوات بكائهم الخافت، والنظرة المنكسرة في عيونهم وخطواتهم المترنحة تبدو حقيقية هكذا؟

احتضنيني ايتها الفراشات، لأصبح شبح مغطى ببياضك، لتطيري بي، فوق المنازل، لأرى ماذا يوجد خلف كواليس هذا العالم، أريد ان أرى الصانع وأقول له "أخيرا وجدتك، دعني أبقى بجانبك، أليس من حق اللاجئين امثالي ان يتم استقبالهم في الملجأ الحقيقي؟"

مضى زَمن طويل وأنا أحارب لوحدي ضَد جيوش لا ترحم أحد، داخل رأسي، لَم تَكن الأمور بخير أبداً، لذلك أردت أن أكون محلل حيادي للحرب وأعرف سبب نشوبها داخلي، وسوف أكون كاذبا إن أخبرتكم أنّي عرفت سببها ولكنّي حميت نفسي من الدَهس.

فَي بعض اللحظات تجلس لوحدك وتشعر أنّك وحيدا، لذلك أنت حزين، وبعض الآخر تشعر بأنّك لوحدك لذلك أنت بخير واكتشفت أنّ كلاهما على خطأ، نحن نحتاج أن نكون بالقرب دائماً، بالقرب من أنفسنا، من الله فليست الوحدة متعلقة بالناس أبداً.

لقد كان أمري مَرهقا، كانت الأوضاع تتراقص على قبري بينما لم أكن بَميت، عَشت وكأنّ لا أنفاس لي، وكلّ عمليات الجمع تَوقفت على صَدري مُحتضنة آلاف الآهات ودون أي خجل؛ سُرقت أحلامي منّي وقالوا

قانون الرياضيـات الطرح، هم لم يطرحوا أحلامي منّي بل طرحوني أنا من الحياة، من وقع أرضاً وتبعثرت أشياؤه بجانبه كان أنا.

بكيت حتى نَمت الزهور على صدري وكانت النهاية، النهاية التي لطالما كنت أتخيّل حدوثها، لم تحدق إلي نهايتي كما كنت أحدق بها، كفلتني إلى الموت المؤقت، المؤقت الطويل. لازلت هنا كما لَم يَحدث شيء أبداً، أنا لازلت أسير ونصف دماغي مهشما، مؤخرة رأسي مفجرة حيث متت آلاف المرّات، كانت هذه المرة الوحيدة الصادقة، كان الألم صادقا هذه المرة وكذب الأمل دائماً.

كلّ شيء داخل جسدي إلا روحي. مجوفا، يمرّ داخلي الهواء كأعواد البامبو الرطبة، أشعر بالاشمئزاز من حياتي، ذاتي تقرفني، أحتاج أن أتقيأ أيامي وأقص جذور إرادتي للحياة.

أقطع كل صلاتي مع جسدي، أبتر ألمي اللامتناهي. وجودي بلا معنى وكأنّي زهرة نبتت على رصيف المشاة، في كلّ لحظة مرّت؛ خشيت أن أسحق تحت أقدامهم، لأنّي لم أشعر بأنّ هذا مكاني ابدا.

ذلك الشبح سيحاوطني قريبا، يثبت أنياب انتصاره في حنجرتي، يجعلني أصمت للأبد، بينما امتلئ بكلمات كبيرة لا تُقال، أنفجر كبالون امتلأ بَهواء

يَفوق حَجمه، سوف أموت ولازال هناك أشياء أريد فعلها، قَولها، لذلك أنا خائف.

أعلم أنّ الموت خائف منّي أيضا، ولكن لا بد لنا أن نتعانق في النهاية، كلقاء أحبة مضى زمن طويل على فراقهم. سوف أموت في النهاية ولن أُشيِع، أموت من ذَكريات أحبائي ولا يعود أحدهم يتذكر ذلك الفتى النحيل القصير ذا الوجه الأسمر، وحتى مع سمارة تَبَايُن تلك الوسادات تحت عيناه.

وتخفق أجنحة الملائكة فوق رأسي، يهتف الشبح الذي ضلّ يطاردني طوال عمري -أمسكتك- وهو يكشر عن أنيابه في وجهي. وجهي المرتعب، وقد وصلت لأقصى مراحل الخوف تقدماً، تلك المرحلة التي يتجبس بها جسدك، مستسلما تماماً، ابتداء من إصبع قدمك الصغير وصولاً لعيناك التي أضحت بحيرة كبيرة ساكنة صافية تعكس كل ما يحط عليها، فلا تعود تعرف شيئا غير الانتظار، انتظار الهلاك ولا تستبعد فكرة أن يهب الآن شخصاً ما لينقذك ولكن خيط الأمل ضعيف ويسهل قطعه.

تنتهي حياتي ولا أعود شيئا، وهذا ليس بجديد فلم أكن شيئا طوال فترة حياتي، لم أكن شيئا غير عبء على نفسي. جسد صعُب عليّ حمله معي

كلّ هذه المدة. ولكنّي مع هذا كنت عازما على تقديس نفسي بالغد، لقد ضاعت منّي فرصة أن أقدّسها بالأمس.

الآن أنا لا شيء غير شخص بليد جالس في الظلام تَلتف حوله الملائكة، تَنظر إليه بَحقد وطيفه الحبيب يحتضنه من الخلف، وأجنحته السوداء الكبيرة تنغلق عليهما ببطء وكأنّ الستارة قرّرت أنّ العرض انتهى. ونهاية القصة ابتسامة شبحي منتصرة ومستحقره لشخصي، ذلك الشخص الجالس بهوادة، ذلك الرجل المنطفئ والمستسلم كان أنا. وقد كان يستحق الموت حتماً ولكن ليس بهذه الطريقة الجبانة، لم أكن أريد أن أنسحب هكذا من الحياة كالجرذ الراضخ دون أن أقاوم أو حتى أنطق بكلمة أو أذرف دمعة. لا أظن أنّي سوف أبعث مجدداً فزوالي مقدر له الأبدية. لابد أن الله كان يعتقد أني عبدا يستحق العيش ولكنّه الآن تأكد بأنّ وجودي ليس مهما، لن يفيد ولن يغير.

ما عدت أعرف نفسي، أظنّ أنّي أشيخ، كلّما نظرت لعيناي تحديداً أكبر سنة، والعودة تستحيل فالانطفاء مخيف أكثر من كلّ شيء آخر، ولا يصح أن يُقارن الخوف من الأشياء الحتمية كالتقدم بالعمر بالأشياء التي تغير الإنسان من الداخل وتشوهه، تفترس ملامحه فلا يعود يعرفها، رغم أنّه ذات الشخص يعجز عن وصف نفسه.

لم أكن مستعدا للموت طوال حياتي، ولكنّي أدركت أنّي لم أكن حيا ولم أكن غير جثة تتعفن، ويوما بعد يوم سوف يفضحني جلدي وهو يتساقط أمام المارة. كان قبري كبيرا، كبيرا لدرجة أنّى كنت به ولم أعلم، كنت ميتا وأخذت أسأل نفسي لما تخاف الأشباح من الموت، أليست هي ميتة بالأساس؟

ثم تذكرت بأنّ العدل الوحيد المنصوب على هذه الارض، هو الزوال، فزوال العالم مؤكد، ولسوف يأتي يوم أدفن به نفسي بنفسي، وبكلا كفاي أحمل نعشي، وأحفر قبري، ولكنّي الآن وقبل كلّ هذا أحتاج إلى القوة، الشجاعة، التعلم، وإلى الصمود.

أريد حوارا طويلا مع نفسي، وتفسيرا مفصلا، لما أنت جبان هكذا؟، عَش جيدا، فالموت حق، هذه هي الحياة، وما دمت تتنفس فأنت حي، جد الأسباب للعيش، فهذه مهمتك الوحيدة. ان لا تحكم قبل ان تعلم، ولن تعلم قبل ان تصل للنهاية.

-بالحقيقة-

لم أستطع الكتابة ولا حرف واحد تعبيرا عما كنت اعانيه وقتها، كانت الاحرف تخنقني اثناء الليل، أحرفي كانت تطارني في كوابيسي وتقتلني. لم اتمكن من النوم، كنت عانى من شيء يفوق قدرتي على كتابته، او البوح به، او حتى الاعتراف بأني لم أكن بخير.

بالحقيقة شعرت بأني ملزم بفعل شيء، او تغيير شيء، ولكني لا اعلم ما هو. المسوخ الذين رأيتهم لأول مرة في حياتي، لم يكونوا يتفاهمون معي هم لم يجيدوا الكلام، لذلك كنت أكثر من الهرب واقلل الشرح.

بالحقيقة لم أشعر قط بأن لي فم أستطيع التحدث به، بينما عجزت عن رد الإساءة بمثلها، وقطعت التبرير لكي يتم فهمي، رغم رغبتي الدائمة بكسب الرفقاء، ألا أني كنت منبوذ بالكامل.

بالحقيقة ... لم أستطع فعل شيء ولا حتى الجلوس والراحة، كنت مثل قارب خشبي وحيد نبت راسي في الرمال وعلقت هناك، أردت ان أعرف ماذا يكون بعد هذه الرمال، ألا أنى لم أرى البحر لأني كنت اولي وجهي للأرض.

بالحقيقة ...شعر ان هذا اقصى شيء يمكنني ان افعله، البقاء هادئ والتخفي وكأني لست هنا، لست أي احد. كنت عالق وحسب، بين الشيء وعدمه. عالق مع كل الاشخاص الذين تخلو عني /تخليت عنهم، عالق مع

خططي للنجاح وعجزي عن تنفيذها، عالق بمستقبل لا يأت وماضي لم يمضي، عالق مع عائلة لا تحبني وأصدقاء لا يريدون مجالستي، عالق بين رغبتي في الموت وتلك التي تشدني للحياة ولكني هذه الايام احارب لأحب نفسي لذلك ...

لنأخذ استراحة (استراحة طويلة من كل شيء، لأستمر في موتي، ليبقى القارب المهجور يولي ظهره للبحر.

بالحقيقة.. انا لم أكن شجاعا لأهرب، ولا قويا فأبقى. سأختفي حيث انا. ولكني أريد ان اخبر نفسي ايضا، يكفي بكاء، كلانا يعلم موطن الضعف فينا، هل تذكر يا انا، لقد وعدت الله ان اعتني بك جيدا ولن اخلف وعدي، لن احملك مالا تستطيع لا حقق رغبة انانية في السعي نحو شيء لا يريدني. لما هذا الحزن؟ انظر الي، ابكي، يحق لك البكاء ولكن ابكي بجانبي ومعي، دعني اعلم ما يحزنك كي اتجنبه، دعني افهم سر دمعاتك.

بالحقيقة... من قال لك: اكتم شهقاتك، ابلع دمعاتك، لا تصرخ، دعها بالداخل، دعها تذكرك -بأنك وحيد- وحيد للأبد، هذا الشخص لم يكن يعرف، باني لازلت هنا، بجانبك ومهما حاولت الكتم سوف اعلم، فلا اتأخر تعجيل احتضانك. لقد فعلت الكثير، أحبيني وحسب، وسوف يكون أعظم انجازاتك أوكد لك، بداية العظمة حب الذات، فأحبني.

الفصل التاسع:

الفتاة من الجانب الآخر

طويل، ضخم، لديه قرون سوداء، ويرتدي عباءته الداكنة، لم يكن من البشر، بوجه كالدَواب وأنف كبير بارز إلى الأمام، كانت الأزهار تحيط به من كل جانب، وعندما يخطو تتحول الأزهار الى اللون الأسود، كلّ شيء يخصه مظلم، وكلّ شيء يمر به أو يلامسه يتغير لونه وشكله، كان يسمى "ليل".

وفي يوم ما بينما كان ليل يتمشى في حديقة الزهور الخاصة به، رأى طفلة بشعر أبيض فضي جالسة على الأرجوحة التي صنعها بنفسه الشهر الفائت، رفع حاجبيه وداعب قَرنيِه بتعجب، لم يسبق أن عبر شخص ما من النهار إلى الظلام، لطالما عاش وحيدا داخل عالمه المظلم.

فكر في العودة إلى المنزل بعد أن يتخلص منها، وقف الليل خلف شجرة كبيرة خضراء يانعة، كانت مقدمة حذائه هي الحد الفاصل بين الظلام والنور. الفتاة صغيرة كانت تجلس هناك دون حركة تفكر في شيء ما، وتمرجح قدماها، ربما كانت خائفة منه وهذا ما شعر به عندما نظرت له بتلك العيون الصغيرة، والوجه الشاحب. فستان أبيض، وأقدام حافية

بأصابع صغيرة، وخلفها وقف الليل بطوله الفارع وهيبته، ابتسمت الطفلة فجأة كاسرة حاجز الصمت "هل أنت الأيل الذي يأكل النهار؟"

صغر عيناه، وتساءل بداخله إن كان قد شاهدها من قبل، فهي تبدو مألوفة بنسبة له "ماذا تفعلين هنا؟" أعادت رأسها إلى الأمام وقفزت من الأرجوحة ووقفت أمامه، كانت صغيرة جدا مقارنة به "أردت التأكد من أنّ ليل لا يتذكرني" كان هادئا ومسالما أكثر مما قيل عنه، لطيفا أكثر مما روته الحكايات، تقربت منه ليعود إلى الوراء بخطوات حذرة فقالت بصوتها الناعم "لما تعود الى الخلف؟ هل أنت تخشاني" " أنا لا أخشى أحد، أنا أخشى عليهم" في تلك اللحظة عبر طائر من جهة الضوء إلى الظلام وإذا به يجلس على كتف الليل وقد تحول العصفور الصغير إلى غراب كبير أسود "يجب أن لا تعبثي هنا، عودي من حيث أتيتِ يا صغيرة".

أمالت رأسها وصفقت بحفاوة "لقد كبر العصفور وأصبح جميلا مثلك" انسحب عائدا للخلف، مذهولا، وخائفا، تاركا إيّاها خلفه وكلّما انسحب هو، انسحب الظلام خلفه، عاد النور إلى حديقة الزهور وعادت الزهور إلى ألوانها.

ركضت الصغيرة خلفه بكلّ مرح، تقفز فوق الحشائش، تتجنب سحق الزهور، كان كلّما يعود للخلف خطوة تتقدم هي خطوتان، كان يهرب منها

حتى استسلم في نهاية الأمر، هناك طفلة مضيئة تسير خلفه "لن تستطيعي البقاء معي، مهما حاولت، فأنا شخص منطفئ، لي عالمي المظلم" ضربت إحدى قدميها بالأرض بانزعاج، وبرزت شفتيها بامتعاض "من قال لك، أنّي أريد منك أن تضيء كي أتقبلك، أنا أريدك مظلما هكذا، فهذه الطريقة الوحيدة لأكفر عن ذنبي الذي اقترفته في حقك". توقف عن السير ونظر إليها فتوقفت هي كذلك وكان الخط الفاصل بالمنتصف تماما "ماذا تريدين مني؟"

"أنا أريدك" ضحك الليل ضحكة عميقة، وهو يمسك معدته، فأكملت حرجة بعض الشيء وتوردت وجناتها خجلا "أن تعبر إلى جانبي" توقف عن الضحك، وأخفض نظره إلى حذائه الأسود الطويل واصبح جدي بالكامل ثم قال وكأنّه يدعي عدم الاهتمام "ولكنّي لا أستطيع" فقالت بحزن "هل جربت ذلك؟"

"وهل تظنين أنّي لم أجرب؟" فلم يكن لها خيار آخر سوى أن تقترب هي منه، فقد كان هدفها يستحق التضحية، لم يهمها ما سوف يحدث لها، هي أرادت أن يصبحا واحدا فيختفي الظلام من ليل "أليس جميلا لو يصبح ليل غير مظلم؟"

"أنت تضحكينني، لا يمكنني الكف عن الضحك" اقتربت بضع خطوات للأمام وقلصت المسافة بينهما فعاد هو خطوات مرتعبة قاطعا ضحكته في المنتصف وقال محذرا: "لا تقتربي مني، سوف تصبحين وحشاً".

"كيف تعرف دون أن تجرب؟، أريد أن أعرف ماذا سوف يحصل إن اقتربت، هل سوف تلتهمني؟" قال معترضا: "يالك من سخيفة، أنا لا ألتهم الأطفال"، وبذات النبرة قالت ولكن بصوت أعلى منه: "أنا لست طفلة، أنا أدعى نهار".

"لا يهم، سوف تظلمين، يصبح كلّ شيء بك أسودا، يزداد حجمك وتصبحين قبيحة مثلي".

"ولكن أنت جميل" غضب بشدة منها، وقبض على كفه وأسنانه بقوة، وفقد آخر فرصة لإبعادها عنه، وها هي تمشي خلفه برفق حتى كادت تتجاوز الحدود الفاصلة بينهما، فصرخ بها كآخر محاولة "لن تعودي كما كنتِ، أنا لا أستحق أن تجازفي بنورك من أجلي" هرولت الصغيرة تركض باتجاهه، لم يجرِ بعيدا وتسمّر مكانه حتى شعر بشيء ما يحتضنه، شعر بها تحتضنه من رأسه إلى أقدامه.

استنتج أنّها قد أصبحت بطوله لذلك هي تلف ذراعها حول عنقه، ولكنّه تفاجأ عندما فتح عينيه ليرى وجهها بادئ الأمر ثم عيونها البراقة وشعرها

الأبيض، إذ به يدرك بأنّه هو من صغر حجمه، لقد كانت الزهور تحيط به ملوّنة، كانا كلاهما داخل النور، الفاصل كان يتراجع وبشرته تتلون وقرناه قد اختفيا وها هو يعود لصبي صغير ذا شعر أسود وعيون سوداء، ليل كان طفلا هو أيضا، كان خائفا هو أيضا، وكان يشعر بالوحدة، تمنى لو يستطيع أحد ما أن يحتضنه، وها هي النهار تمد يد الرَفقة إليه.

نظر إلى كفاه، شهق بصوت عالٍ وشقت فمه ابتسامة واسعة وبعينيه كان الذهول، إلى ذراعيه وقدميه، نظر إلى جسده الصغير وإلى اصابع قدميه الغارقة في حذائه الضخم، إلى ملابسه الواسعة، إلى خلفه وأمامه، لقد اختفى الظلام، جلس على الأرض متربعا وانسابت دموعه على وجنتيه يبكي وينتحب كطفل صغير.

"ولكنّي أردت أن يصبح شعري أسودا" قالت تدعي الغضب بعض الشيء ثم ضحكت بصوت عالي على نفسها، نظر إليها ليل بتيه "تذكرت من تكونين، ألم نولد معا؟"

تراجعت النهار إلى الخلف خائفة، أن يعلم أي جرم فعلته هي، وكيف بسبب هروبها من جانبه أصبح يعاني لوحده، قليلا وقد عاد هو إلى الظلام من جديد ليتحول شكله مجددا، ساوره الحزن وهو يرى الظلام يلتهم جسده، كان ينظر إلى كفيه الخالية وإليها وهي تتراجع إلى الخلف ببطيء.

"هل تخافين مني أنت ايضا، لن أؤذيك اقتربي مني".

تنهدت بصوت عالٍ، ثم ابتسمت، قرّرت أن تخبره عن الحقيقة، ولكنّه ركض إليها ليعانقها، فإذا بها تتحول إلى شيء يماثله، ضخمة بقرون وأنف بارز كالدواب.

عندما رأى هذا قد تراجع بخوف وبتعد أبعد ما يكون عنها، غطى وجهه بقفا يده بحزن وقال بصوت مخنوق" أنا آسف لم يكن يفترض أن أقترب منك اولاً، سوف انتظرك".

مدت يدها إليه لتقول: "هذا أفضل، لنتناوب، هناك الظلام وهناك النور، لطالما كانا سببا في وجود الآخر، لنعش هنا معا عندما نظلم، ولنخرج إلى العالم عندما نضيء ولكن أرجوك عندما تحزن امسك يدي، دعني اعش الظلام معك، ولا تترك يدي، عندما اشعر بالوحدة كن بجانبي".

وضع يده في يدها ليعود طفلا مجددا، هو لم يتخلص من ظلامه، ولكنّه وجد من يشاركه إياه، بينما هي لم تفقد نورها ولكنّها وجدت السبب لتنير. قالت بتوتر "هل تعلم؟ أنا لم أفعل شيء، أنت من أضأت نفسك، أنت الشخص الذي كنت تنتظره، أنت لم تنتظر أي شخص قادم من الخارج، القادم كان من الداخل". "ولكن أنت أتيتي من الخارج".

"بالحقيقة، لقد ولدنا معا، في ذات المكان، في ذات المهد، ولكنّي كنت خجلة من أن أحملك للخارج معي، وبعد كلّ هذه السنوات قرّرت أن أعترف بذنبي الكبير وأعود لأشاركك الظلام وتشاركني النور لنكون واحدا كما كنا دوما".

لا تنتظر شخصا قادما من الجانب الآخر لينقذك، لينير عتمتك، أنت تستطيع إضاءة نفسك، لا تنتظر بل ابدأ الآن، احتفل بإنجازك، لم أساعدك بل أنت من ساعدني، لم أجدك بل أنت من وجدني، لم أنقذك بل أنت من أنقذني، أنا لطالما كنت أهرب منك، أخافك، ومترددة تجاهك، أنا سبب معاناتك، فهربي جعل الليل بداخلي ظلام.

-أبدأ الان-

مشدوه، عيناي يسبحان في الفضاء، أنفاسي المقطوعة تعود إلي تدريجياً فقد وصلت للحفل متأخرا، غادر الجميع وفرغت القاعة. أسمالي مبتذلة كُلِيًّا، شعري متطاير، القاعة الخالية كانت مثلي، لا شيء في مكانه، كل شيء مبعثر، متناثر، وخاوٍ.

تخيل فجأة أن يتوقف كائن مجهول أمَامك عاكس بظله الكبير على جثتك ولكنّك لست متأكدا مَن ما تراه، رُبما يَكون الخيال لدب كبير أو غوريلا عملاقة، أنت لا تعلم. ضل كبير لكائن مجهول، قد يلتهمك وقد ينقذك، وقد يحميك ولكن الخوف ينخر رأسك نَخَرَا، يجوفك من عزمك وقوتك. وتبدأ خيوط الشك تُبنى في زوايا عقلك، خائف أن يكون وقتك يَضيع وأنت تنتظر الفرصة لتأتي. ولكنّك تدرك متأخرا أنّك أفنيت شبابك تنظر لصورة. صورة حجبتك عن الحقيقة سُميت التخاذل، انتظار الفرص.

يَضلّ يخيم عليك ويحجبك عن مستقبلك، يدفعك لعيش حياتك وراء الكواليس، عندما تقرر الجري، تهرول إلى حفل تتويجك. تجده قد تم على أكمل وجه من دونك. تُوزع جوائز الناجحين، ولا تكون معهم لأنّك أفنيت عمرك تنتظر شيء لن يأتي، أضعت كل وقتك بالخوف من شيء وَهمي. لن تكون بطل قصتك ولست الشرير في قصة غيرك، لست أي شيء حتى لست

غرض من ديكور المسرح، وجودك وعدمه سواء وأين ما تهرب يبقى جسدك في الظلام، ولكنّك...

"ولكني سوف أخرج للضوء عاجلاً أم أجلاً، لا جائزة لي؛ أعلم. ولكنّي لا أريد جوائز ولا تصفيق. الجمهور الوحيد الذي أريده هو أنا. وتلك اليدين التي سوف تصفق لي هي يداي وحسب. لن أخذل نفسي. أنا فخور بكلّ شيء فعلته، لم يكن سهلا أن أحارب كل أشباح الفشل، وجيش المنتقدين داخلي.

الأشياء التي يفعلها غيري لا تهمني. فهم بدأوا من العشرة وأنا بدأت من الصفر. كنت وحدي بينما هم معاً، أحتفل بإنجازاتي الصغيرة وأنفخ على الشموع التي ذابت في يدي. لوحدي تعلمت السير ومشيت. صبرت، تعلمت. حافظت على قلبي من التغير. صنت نفسي. كتبت وقاومت الصوت الذي يخبرني " أنت فاشل، لن يؤمن بك أحد، لن يعترفوا بك، هل تسمي هذا فن، كل ما تفعله مجرد هراء". لقد وصلت لحب نفسي؛ لتشجيعها، لقد وجدت جمهوري.

تذكر يا أنا... أن تَصل دائماً ولو بعد حين. ولكي تصل تحتاج وجهة. لا تنسى وجهتك. لا تفكر أبداً بغيرك لأنّك لست هم. أنت مميّز لأنّك مؤمن

بالوصول مهما تطلب الوقت من جهد. أن تصل متأخر خيراً من ألا تصل أبداً. ليس هناك وقت ميمون للبدء، لا تستخر متى تبدأ، ابدأ الآن.

-لا تنتظر الأشياء لتأتي، بل اذهب لها أنت -

"هل تعرف شعوراً، يشبه الغيوم الداكنة، تنظر إليه طويلاً تنتظر أن ينقشع، يمطر، يرعد، أن يبللك، أي شيء يحدث ولكن شعورك وكأنّه أقسم يميناً أن يصمت. يبقى واقفا منتظراً (شخصي) لا يفعل شيء غير الانتظار، وكلما زاد وقت انتظاره خاب ظنّه أكثر، وكثرت شكوكه".

- ثم يبدأ المطر يهطل وأخيرا، ولكن ليس من السماء، بل من عيناه، لما تبكِ؟ سألته رغم علمي بنفسي. فنظر إليّ بحزن ثم ابتسم بانكسار. مسح عيناه بخشونة، وأخبرني بقلق وكأنّه كان يحاول مواساة نفسه، هل كان يسأل أم يجيب لم أكن أعلم " سوف تحدث معجزة إن انتظرنا أكثر، أليس كذلك؟"

- ثم نشعر بأنّ حياتنا لا تكفي لكلّ هذه الانتظارات الطويلة، وبأنّ الغد لن يأتي، وهذه الليلة لن تنتهي أبدا. شمس الصباح سوف تشرق، ولكن على جثة، يابسة، مُلئ فمها بغبار الانتظار.

- أن ينتظر المرء شيء لن يأتي، لهو شيء مخزٍ للغاية، ما عذرك؟ الأمل؟، يا لك من ساذج، ما الذي تستمر بانتظاره هكذا؟ هل تظن بأنك تستحق معجزة؟

- وهو هناك، فكر بجدية، وهو ينظر للسماء تحديداً، يتخيل أن تمطر هي، فيفتح يديه ويرفعهما عالياً ثم يدور حول نفسه، في رقصات متخبطة، ونظراته مصوبة نحو السماء.

"كنت مستعدا للتضحية في سبيل التفاتة واحدة، من أمل بعيد، أو غرق قريب. لم يعد يهم أن يأتي ما انتظره، أريد فقط لهذا الانتهاء أن يحين. لم أستطيع التنفس مجدداً، فأنا لا زلت أنتظر. آه، أردت أن أعود للمنزل ذات يوم، وألا أحدق، لا أحدق أبدا، ولا ألتفت لهذه السماء، ولكنّي لم أستطع تجاهلها وهي بهذا الاتساع. أنا أتألم سواء نظرت أم لم أنظر فالشعور الذي اهرب منه بداخلي. يخيل لي أن بعض المعجزات سوف تُخلق قريبا، سوف تنقشع هذه الغيوم وأرى السماء الصافية. كنت أعلم بأني كاذب، والاعتراف كان يخيفني، فأصمت. قلبي ينبض وكأنّي ركضت ألف ميل نحو المنزل، مشاعري مهتاجة، وأشعر بحرقة تسري من أصابع يدي إلى أذناي المحمرة. أنا متحمس، وخائف، هذا ما يعنيه الانتظار. إنّ المرء يحق له أن

يتأمل، ألا يستسلم، أن يتفاءل، هذا ما أخبرت نفسي به، حتى أقنعها بأنّ من حقي أن أنتظر التغيير الذي لن يحدث بوقوفي ها هنا".

- لقد كان ينتظر بقلق، يطرق بقدمه الأرض، مرة تلو الأخرى، يفرقع أصابعه، الواحد تلو الآخر، يعد الخطوات ذهاباً وإياباً، يعد كلّ الضحكات التي تسربت إلى مسامعه. تتوقف حياته بينما هو يستمر بالانتظار، ينهش التوتر ما تبقى من رزانته فلا يبقى هناك عقل في رأسه. يهتاج ويمرض، ويبقى متمسكا بذلك الانتظار. يبكي وينهار، يفقد بهجته وآخر أمنياته. فلا يعود يلاحظ أي شيء مما يعيشه الآن. تسبقه كلّ السعادات إلى النسيان الأبدي. لا شيء يعود، ولا شيء يأتي، ولا شيء يمضي. كل شيء في حالة سكون مخيف. فماذا هو فاعل الآن غير البقاء في مكانه، غير الصراخ الصامت، وتلك الابتسامة المتوترة، يرسمها بهدف أن يطمئن من حوله بأنّه لا زال بخير.

- أنت لست بخير، لا تتوهم ذلك، لا تهرب مني، فأنا الحقيقة بداخلك، ثم يبدأ صوته يعلو وهو ينتحب يضرب باب الانتظار، بكلا قبضتيه، لا يحلم بكسره بقدر ما يتأمل أن يُفنى ويختفي هو. كيف لا يرهقه تواجده؟، ذلك الجسد أنهكه الانتظار، لم يعد يستطيع الوقوف، ولا حتى المضي.

"لم أعد أطيق صبراً، لا زلت أنتظر، ضيعت حياتي أنتظر، يا الله أين هو ما وعدتني إياه، لأي شيء سارت قدماي كلّ هذا الطريق؟ أ لأجل أن أقف في المنتصف وأنتحب، وأتلوى. كل هذا عبثي.

-عندما ينتهي من بكائه يكون قد فقد كلّ صبره وضاع منه إيمانه، وصل لمرحلة الجزع، وأغفل قلبه حتى عنّي -أنا ذاته ونفسه- ما يريده لن يأتي وإن انتظر عمرا آخر. وصل للنهاية المسدودة. لقد وقف لوقت طويل محمل بالانتظار والأماني. حان وقت السقوط. يرى نفسه تنحدر لشيء لا تشبهه، كائن منطفئ لا يؤمن بالانتظار، لا يثق بأي وعد وليس لديه أي أمل.

- ثم يسألني يبكي -مثير الشفقة- حتى أبكاني على حالته، ما هو خطئي؟ فأخبرته لا تتعلق بما لم يخلق لك، رجوتك ألا تتمادى بالأمل، أخبرك أن تسقط عنك ثقل الانتظار، لا تنتظر أي شيء، فالخيبة مؤلمة، التفكير بأنّك طوال عمرك حلمت بالمضي بينما لم تتجرأ أن تبارح مكانك، لهو شيء قاسٍ للغاية، ومذل.

- هل يؤلمك الآن؟ أقصد الاعتراف بأنّك حملت الكثير وكَذبت. من قال لك ألا تستلم؟ بعض المرات يكون الانسحاب نعمة، أنظر هناك الكثير من النجوم في الجهة الأخرى، لما لازلت تحدق بغيمة؟

- أعلم أنّه مؤلم، أن تغير طريقة اعتدت أن تتخذها منهجاً ومبدأ، التغيير يمحي الانتظار. لا تقف، فأنت لا تستحق أن تخذل نفسك، وتقنعها بأنّ الهدف خطوتان بينما هو يتطلب عمرا من العمل -ذلك خداع وتحايل- اتبع صوت قلبك فهو المرشد لك في هذه الحياة.

"الآن أنا أحتاجك، لن أستطيع المضي من دونك. يمكنك أن تمسك يدي، سوف نسير معاً في الطرق الطويلة، ونعيد سرد الطرق القديمة، ولكننا لن نقف لننتظر حدوث شيء بالمصادفة. ليس هناك معجزات من أجلي، فالحياة لا تسيرها المعجزات، ولا المصادفات، كلّ شيء موزون بدقة مبالغ بها. أليس هذا ما كنت تريدني أن أفعله؟ لذلك لا تتخلى عني، ومدني بالقوة".

سوف أمسك بِيدي وأنَهض، سَوف أثق بَقدرتي، وأؤمن بَنفسي، لا بَأس بالمَحاولة مُجدداً، بِطريقة أخَرى.

-أنا الآن أقاوم-

أقاوم الخوف من الفشل، الخوف من الخذلان، أقاوم البكاء، ولكنّي سوف أستمر حتى وإن حدث كلّ ما أخشاه فلا بأس، كلّ شيء أهون من الندم على شيء لم تفعله، اقصد الشعور بأنّك قد تخليت عن حلمك لأنّك جَبان. سَوف أفعل كلّ شيء لأعجب بذاتي، لأحبها وأكون راضيا عنها...

أين يهرب المرء عندما يَكره نَفسهُ ويَرغب بأن يَكون شَخصًا آخر؟ عندما يقول يا ليتني شجرة تضل العابرين، ليتني زهرة، ليتني طائر حر بلا قيد حزين، أنا لا أريد أن أكون أنا، ليتني أفنى. استهلك الكثير من الأحلام، وأنام على قَيدها وأصَحو! فلا أجد وسادتي تحت رأسي، حرفياً أنا أطمح لشيء. أريد أن أعيش وأطالب بشيء -لا أعلم ما هو-. أقيم ثورة على الفشل، أحاول الخروج بكلا يدي وعندما أسقط؟ تتكسر أصابعي ولكنّي لازلت أستطيع أن أنهض مجددا. أمتلك شيء ما، خَفي -لا أعلم ما هو- ولكنّه يَشتعل بَداخلي، يشتعل بوهج حارق، يؤلمني أن أبقى حيث أنا. الركود الذي أنا به يَخنقني. لعلي سوف أموت في نهاية الأمر، ولكنّي أريد أن أثبت لنفسي أنّي اسَتحققت العيش كغيري، أريد المسير في ذلك الطريق حتى وإن كانت النهاية مسدودة، أريد رؤية ما خلف هذه النقطة.

الخوف لن يساعدني أبداً على استكشاف شيء كان مقدرا لي، لن أخسر سوف أعود حاملة معي التأكيد على أن تلك الطرق لم تخلق لي. هذا ليس فشل. شخصي يجب أن يفتخر بنفسه أيضا. لا يجب أن تنال الظروف كلّ الاستحسان والفخر الذي تريده. شخصي يريد أن يكون شمعة، أن يشتعل بهدوء ورقي، أن يبعث الضوء لنفسه، أريد أن أكون كما أريد أن أكون. أكسر كلّ الأصفاد وأصرخ بصوت عالٍ "فعلتها" حتى وإن كنت متأخر، لازلت سوف أكون فخور بنفسي، لا توجد مشكلة، ما دمت أحب ما أفعله. أنا نجحت، نجحت بالفكرة، بالتغيير، أنا أفضل من أمس، نجحت لأنّي وضعت هدف، وخطة للتغيير. أنا نجحت قبل أن أبدأ. ما يهم حقاً أني أسير وأخيراً دون خوف أو تردد بإدراك تام، ورغبة حقيقية بالوصول

الفصل العاشر:

الزنجي

قد يلقبنا البعض بألقاب كريهة وبعضها بغيض وبعضها يدفع بنا لكره أنفسنا، وقد يسوء الأمر كثيراً فيكون المهرب الوحيد هو الموت. عندما تضطر للعيش وكأنّك مسخ مجهول، هم يرغبون بحشر هذه الفكرة في عقلك. يسألني بعضهم لما خُلقت هكذا؟ بينما الآخر أرى ذلك في عيناه.

- زنجي، ذلك كان لقبي في المدرسة الابتدائية، كبر معي حتى أصبح هويتي التي لم أعد أنكرها الآن، في يوم ما، عندما كنت في سنتي الأخيرة من الثانوية، وأنا على مشارف نهاية مراهقتي، تم حصري خلف ملعب الغولف القديم، بجانب منزل السيدة نبيلة التي كانت تأخذنا فنية في الحضانة، كنت قد ذهبت لأجلب بعض الدواء لسوء الهضم، فقد بدأت عندي عادة سيئة منذ أسابيع في بلع الطعام سريعا دون مضغه، ذلك ليس موضوعنا.

كنت أرتدي آنذاك بلوز صيفي أبيض وسروال أسود قصير، لقد صبغت بلوزتي بالأحمر أثر الضرب العنيف الذي تلقيته هناك، وللآن لا أعلم هل ما رأيته كان واقع أم هو من وهم الخيال إثر حالتي تلك.

"هل يسعدك أن تتلقى اهتمام المعلم؟" ابتسمت، لا أعلم بما أجيبه، الفتى النائم في المقعد الأخير، كان همي أن أخرج من دائرة بشرية مكوّنة من خمسة أشخاص متحمسين لضربي.

"هل يسعدك أن يعترف بك كأفضل طالب في المدرسة؟" هذا الشخص الذي بجانبه محب المشاكل "تريد أن تنال كل الفضل على مشروع المدرسة السنوي؟" ليقول الشخص الذي ترك المدرسة منذ أسبوعين "أيّها الحقير، من تظن نفسك؟ ها" صرخ الفتى بي، ولا زلت ألتزم الهدوء كعادتي المتحفظة، ولكن ما قلته قد تسبب في ضربه لي بقبضة مرصوصة على أنفي "أخمن أنّك غاضب لأنّك تريدني أن أصبح مثلك".

أمسكت أنفي، ورفعت رأسي للأعلى، ما هذا بحق الله؟، الدم يرفض الانقطاع، ها هي ملابسي تلطخ بالدم "حقير، تنسى مكانتك دائما، يجب أن نذكرك دائما، مرارا وتكرارا بهويتك الحقيقية "اشتد الحمق، ولم أعد أرى شيئا لفرط ما غضبت تلك اللحظة وسددت له لكمة جعلته يخرس، ذا الوجه المربع يجب عليه أن يذكرني بمكانتي ولكنّه سقط مغشي عليه من أوّل ضربة.

"ما هي مكانتي؟ قل إن كنت تستطيع، قل لي ما هي حدودي، أيّها الأحمق الحقير؟" كانوا رفاقه ينظرون بصدمة كبيرة لي ولرفيقهم الذي افترش

الأرض، لقد تنمّروا علي منذ كنت في التاسعة من العمر، كنت دوما أخفي ذلك عن عائلتي، المعلّمين وأصدقائي، كنت أشعر دوما، كما لو أنّي أستحق ذلك، وبأنّي قبلت عقابي.

صرخ الفتى الأبيض وهو يضرب معدتي بقبضته "أيّها الزنجي القذر، وتستطيع أن ترفع وجهك عاليا، سوف نلقنّك درسا لن تنساه". هويت للأرض، أصبحت تحت الأقدام، منطوٍ على نفسي كجنين خائف، أحمي رأسي بذراعي، سقطت دمعاتي، أنا خائف، أنا غاضب، أنا أريد لهذا أن ينتهي، لقد تعبت.

لطالما شعرت بأنّ الألم كان في الداخل، الألم الخارجي لم أشعر به، تخدر جسدي، أشعر بالرغبة التي لا حدود لها، في إنهاء كلّ هذا. آلام الذي تشعر به عندما تتعب من ذات الشيء لسنوات قد لا يمكن عدّها "توقفوا" همسة ضعيفة خرجت مني دون سابق إنذار، أتمنى أن لا تخبروا أي شخص بأنّي بكيت، لا تخبروا أي أحد بأنّي كنت بهذا الضعف، أنا أشفق على نفسي، بينما دماء غطت وجهي، ذلك كان مؤلما جدا لشخص عرف طوال حياته معنى أن تعاقب طوال عمرك على شيء لم ترتكبه.

"أصمت أيها القبيح" هل أنا قبيح؟، لقد حصلت في الابتدائية على جائزة كأفضل طالب، انتقلت بمنحة مجانية وتوصية لمدرسة جيدة، وحصلت

على درجات ممتازة، لقد اجتهدت طوال حياتي، خضت الكثير من الصعوبات ولكني تغلبت عليها وانتصرت، ولكني فعلت كل هذا وانا لم أرى وجهي، لقد كرهت التقاط الصور، والنظر للمرأة، الآن نسيت كيف أبدو، هل انا قبيح حقا؟

تنساب كأنها تتراقص تلك القطرات متمردة، يقال بان الدم لا يمتزج إلا مع الدموع، هناك جرح لا زال ينزف، بقي ينزف حتى يومنا هذا.

تذكرت كلام والدي ذات يوم عندما قال "لأنّه مختلف عنهم قرروا قتله"، تتمنى بعض المرات أمنيات غريبة وتتمنى أن يسمعها أحدهم وأنت لم تزل لم تنطقها للآن مثل كلمة "النجدة، أحتاج عناق، أشعر بالوحدة، أنا منطفئ" روحي التي يجب أن أحبها، أصبحت أفتقدها، شعرت بالضياع والشك، تمنيت أن أولد من جديد، لأجد أنّ كل ما عشته كان مجرد كابوس وانتهى، بهذه البساطة فقط؟

بعض مضي دقائق كثيرة، لم أشعر برغبة في النهوض ومعاودة حياتي وكأنّ لا شيء حدث، ولكن هناك صوت رقيق قد جعلني أستفيق "لما لازلت على الأرض؟"

تقف فوق رأسي وتنظر لي من الأعلى، ولأوّل مرة ينظر لي أحدهم ولا يشفق على حالتي أو يكرهني لمظهري. رفعت نظراتي إلى وجه الفتاة التي كانت

تمتلك وجه أبيض كالثلج وشعر أبيض حتى رموشها وحواجبها كانت بيضاء، حدقت هي بوجهي قليلا بلا تعابير، لن أكذب وأقول بأنّي بذلك الوقت قد فهمت ما جرى، لقد فهمته بعد بضع شهور، وكأن ذلك الحدث كالمعجزة التي لن أنساها أبداً وأبقى أرويها أين ما ذهبت، أتذكر وقتها بأنّها مدت يدها الصغيرة لي وهي تشد على قبضتها، ثم قالت "رسالة لك من شخص يحبك كثيراً ويتمنى أن تكون بخير" صغرت عيناي بريبة فمن ذا الذي يحبني لدرجة أن يرسل لي رسالة بيد فتاة لا أعرفها في وقت سيء مثل هذا؟ فقالت لي وأتذكر ذلك بوضوح "قف لأعطيها لك" تألمت كثيراً أثناء نهوضي، ولكنّي نهضت، لأجل الحصول على شيء، وحصلت عليه بالنهاية.

كنت خجلا من نفسي كالعادة كان من الصعب أن أقف، ولكنّه شيء لا بد منه، عندها وقفت مددت يدي إليها فابتسمت لي الصغيرة، ثم قالت بابتسامة "لا يليق بمن هم مثلك" كنت مشوشا جداً، وأتذكر أنّي جعدت حاجباي وظننت أنّها تخدعني، لا زالت يدي ممدودة نحو شيء أجهله.

وقلت متسائل "ما الذي لا يليق بي؟" توقعت أن تقول أن يتم ضربك ولكنّها قالت: "إطالة الجلوس على الأرض، النظرة المكسرة في عيناك، فأنت لست ضعيفاً" قبضة يدها المشدودة مُدت إلي ثم بدأت ترخيها حتى فتحتها

لي، كانت خالية تماماً، لم يكن هناك شيء داخلها ومنذ ذاك الحين وأنا أفكر كيف خدعت صغيرة فتى بمثل طولي؟

بحثت عن أمر الفتاة، كنت متأثرا بالحادثة تلك، كانوا يدعونها الظل بسبب مظهرها وعانت من تنمر بسبب شكلها وخجلها، حاولت الانتحار ثلاث مرات ثم تم إرسالها لعمتها في الريف، وبعد عدة أسابيع رأيتها عند منزلها القديم، وظننت أنّها قد عادت لمدرستها، ولا أعرف كيف قد شاهدتها أنا من بين الجميع. ما الذي جعلها تعود؟ هذا أوّل ما خطر على بالي ثم قابلتها بعد بضع أشهر وفور أن التقينا قالت لي ضاحكة: " كيف حال من تميّز بين البشر بقلبه النقي؟" فتاة مليئة بالغموض ولكنّي كنت سعيدا لأنها تشعر قبل أن تتكلم، وبعد أن دار بيننا حديث طويل قالت لي "أن الرسالة لم تكن ما في يدي، الرسالة كانت ما اكتشفته أنت بعد أن نهضت".

ثم أكملت وهي تأرجح قدماها في الهواء، بينما نحن جالسان على أحد مقاعد الاستراحة في حديقة عامة "قد تقول بأنّي قد خدعتك ولكني كنت صادقة، من يلقب الناس بما يكرهون هو بالحقيقة شخص مسكين؛ لأنّه لا يمتلك ما يتفاخر به غير شكله الذي لم يخلقه لنفسه، وهو يعلم بأنّه

فاشل والجميع يعلم". قالت جملة قد حفظتها "من نقص به الخير، زادته نفسه شراً يشتريه بالمجان فهو فقير".

ثم اخبرتني بينما تنظر إلى عيناي بجدية "أنّ الرب من خلقنا، وفعل ذلك لهدف، يجب علينا أن نقف على أقدامنا جميعاً ونحارب ضد العنصرية التي تحصل في هذا العالم، وألا نستسلم لهؤلاء الوحوش ونسمح لهم بتدمير الروح التي هي هدية عظيمة من الله، لأنّنا لسنا ضعفاء، قف على قدميك وداوي جراحك بنفسك وكن سعيداً، لأنّنا مختلفون لا يعني أنّنا على خطأ، ولا يجب أن نشعر بالوحدة أبدا لأنّ معنا إله كبير ولا نحتاج لصحبتهم الفاسدة".

تحدثت معي بكل ثقة وكأنّها تملك العالم كله في راحة يدها وصدقتها، ثم قالوا لي بعد أيام عندما زرتها في منزلها كي أشكرها على تغيير نظرتي للحياة "بأنّها توفت بعد أن احترق منزل عمتها في الريف". عندها وقفت هناك، مصاب بصدمة كبيرة، اعتذرت عندما خرجت، وتسللت داخلي عن الفتاة التي كنت أراها طوال هذه الفترة، من كانت؟

كانت هذه بدايتي نحو شيء عظيم، إدراكي بأنّي لست مخطئا، ولست خجلا مما كنت وأكونه، وهناك الكثير من الرضا قد غير لي حياتي فيما بعد، جعلني أحارب لأجل نفسي، لأجل أن أدفع بالعنصرية عمن يشبهني،

وها أنا الآن، اعلم أنّ ما حدث قد أرعبني لسنوات ولازال يرعبني، ولكنّه كان رسالة يجب أن انقلها لكم.

أنت جميل، لا تنظر من ثقب صنعه الاخرين.

-العنصرية-

يقتلونك، لأنّك مختلف، يقتلونك لأنّهم خائفين منك، يقتلونك لأنّك النقطة التي سوف تغيّر الكون، لأنّك أوّل فرد من السلالة الجديدة. دائم القول، يا ليتني كنت شخصاً آخر، استطاعتي لأكون شخصا آخر مستحيلة، عانيت من العنصرية طيلة حياتي، ولم يكن لدي أي صديق لأشكوَ له همومي التي صنعها الناس لي، أن أقول الآن إنّي مرتعبة جدا، بعيدة، بعيدة جدا، عن العالم، وعن نفسي.

إني بأمس الحاجة إلى نوم عميق مريح، دون تفكير طويل، وأحتاج أن أسرق أفكار إيجابية من شخصاً ما؟، كي لا أقول إنّ الأفكار السلبية قتلني، لا أريد أن يحكم عليّ بالإعدام، دون أن يجلس القاضي، لأخبره أني بريء من أحكام الناس علي.

لقد تغيّرت، بعد أن تراكم عليّ الأمس، تراكم فوقي كلّ ما عشته، لم يعد جسدي يتسم بالخفي، أنا أثقل من الأمس وغداً سوف أكون أثقل من اليوم، مسجون داخل شيء لا يشبهني، محشور في إطار المرآة والصور الملتقطة خفية، لقد جعلوني واقفاً أراقب أحلامي تتحطم. أنا أريد أن أجرب التحديق في المرآة ويعجبني ما أراه، ألا أبكي بكل مرة أرى ذاتي وألا

أسأل نفسي "ماذا تفعل أيها القبيح لتنجو من كلّ هذا الخراب؟ ماذا سوف تفعل لتخرج بأقل الخسائر الممكنة؟".

أتمنى بعض المرّات لو تخرج شهقاتي بأعلى ما يكون، وألا تحتل السوداوية أوراقي بينما التمني يأخذ أكبر جزء من كتاباتي. أنا غارق في عنصريتهم، فكلّ يوم أعود فيه للمنزل تذوب صلابتي عند عتبة المنزل، ويبدأ كلّ شيء يجري أمامي إلى سريري؛ ما يقولونه، يفعلونه، نظراتهم، حتى عدد الخطوات التي يتراجعون بها عند رؤيتي، يرن كلّ شيء في عقلي كالمنبه، يذكرني بالواقع.

ولقد أدركت مؤخراً أنّ ضرب رأسي بالجدار، لا يوقف الأفكار عن التسلل إليّ. لم أستطع أن أخبر أي شخص، بأنّي ضعيف أحتاج العون، بأنّي أريد أن أبكي كالطفل، وأحتضن الأرض، أريد أن أصرخ بأعلى صوتي كشخص يائس واقف على جسر يشتهي الاختفاء.

شخص تم دفعه للأرض ولم يستطع الوقوف مجدداً، متعب من حياته ويريد التخلص من كلّ شيء. لكني أصمت؛ لا أريد للظلم أن يتأكد من أنّه انتصر، فانتصاره لا يكتمل إلا بسقوطي، وأنا لا أريد أن أعلن الاستسلام، أصمت كي لا يرتجف صوتي بسبب ضعفي، أريد أن أصرخ بوجههم وأقول كفى عنصرية، أنتم لم تخلقوا أنفسكم، لما لازلتم تعدونه إنجازا يُحتفى به؟

مطرق رأسي، أمامي المرآة، ضربت المرآة فتحطمت، صورتي أصبحت أربع انعكاسات، كانت هناك وجهي، قلبي، مبادئي وأحلامي. كلّ شيء كان جميلا بي إن غطيت انعكاس وجهي أو حجبت وجهي بكف يدي فقط، يصبح كلّ شيء مثالي، سوف تواجهني بقية انعكاساتي: قلبي، مبادئي، أحلامي هي من تحدد من أنا، فأنا أعرف نفسي بهن، إن تغير وجهي أو اختفى، سوف أستمر بمعرفتي.

نظرت الى وجهي القبيح، أنا أحد ذوات البشرة الداكنة، العيون المسحوبة، أصبت بحادث فتغيرت ملامحه، أنا أحد هؤلاء، وأيضا أنا ذلك الشخص الذي ولد مختلفا، تكلم انعكاس وجهي يخاطبني: "أنت تكره وجهك لأنّه قبيح، أنت أيضا تمارس العنصرية -على نفسك- أنت مذنب مثلهم بل أكثر، هم لا يرون غير وجهك، بينما أنت ترى الكثير، لديك أسباب كثيرة لتتقبّل ذاتك، لتحبها، ولكنّك وقفت معهم، أصبحت مثلهم، لما تبكي؟ هل لأنّهم يسخرون منك؟ أم لأنّك تريد الهرب من جسدك ولا تعرف كيف؟ لتخرج من نفسك، أمتلك جسداً جميلاً، ثم عد لسخرية من جسدك القديم، أبتعد، أدر وجهك وامضي وكأنّك لا تعرفه، قف مع صف المتنمرين، صفق معهم وهلّل، بينما يقذفوني بالضربات من كلّ جانب، قف متفرجا أيّها الأحمق، وعندما أفر أنا هارباً، لا تتردد في إمساك الحجارة

وقذفي بها، فأنت مثلهم لا تحبني، ولكن لما لا تحبني؟ أنا لا افهم، أي جرم ارتكبته أنا لتكرهوني؟"

تلمست المرآة برقة، إنّه يبكي، ذلك الأبله، لم أره يبكي من قبل أمام أحد، ولكنّه بكى أمامي، زممت شفتاي، أحدق بانعكاسي، وأضحيت أناجيه بصوت هادر محشرج "أصرخ بها بصوت مرتفع ولا تكتمها داخلك، هم لن يتوقفوا عن سخريتهم ولكنّنا سوف نكون أقوى، هم من لديهم عيوب لا يريدون للعالم أن ينتبه لها، لذلك يصنعون ضجة، يخفون أنفسهم خلفها، يعتقدون أنّهم أفضل منك، يشغلون فراغهم بتدميرك لكنّك لن تسمح لهم، لأنّك لست عيباً كما يضنون، الرب من خلقهم، والرب من خلقك، جميع من في هذا العالم لديه عيوب، ولديه سمات مميزة، إذاً لماذا يأتي هذا الشخص -الذي لا يمد للمثالية بصلة- وتسمح له أن ينتقد شكلك، صوتك، صحتك؟ جسدك ... يجب عليك أن تتجاهل عنصريتهم أو تقلعها من جذورها.

اجعل نجاحك يتكلم، دع جمالك الداخلي حليفك، دعه يأتي لنصرتك، أنت لافت للانتباه، مشهور، ولكن دعهم يعلمون بما أنت مشهور، أنت نجم الليلة، قف بثبات، أفرد كتفاك، انفخ صدرك بفخر، وارفع رأسك، امشي بثقة، هذا المسرح لك، وهذه الأضواء من أجلك، هناك جمهور،

دعهم يتكلمون، سوف يحسدونك، لأنّهم لو كانوا مكانك، لاستسلموا قبل أن يبدئوا، أما أنت سوف تغلق أذانك، تعيش ما تبقى لديك بكل فخر وسعادة، لا تحتاج لتقبل الآخرين لك، من هم حتى يحددوا ما سوف تكونه؟ أو يخطوا حدودك لك، أيها الصديق، هل تتذكر؟

لنتذكر معاً كيف بدأنا، وكيف حلمنا، والى أين نوينا السفر، تذكر فأنت لديك أشياء كثيرة تخسرها إن استسلمت الآن، يهم، ذلك الشيء الذي ادعيت أنّه لا يهم، يهمك أن تعيش، فعش أيّها الغر.

-مصنع الحلويات-

كانت أمي تعمل في مصنع للحلويات، كان عملها أن تفرز الحلوى التي لا تشبه الأخريات وتضعها جانباً، تبعدها فهي غير صالحة للبيع.

كنت أخبرها دائما، بوجه كئيب، أنا مثل تلك الحلوى، لا أحد يرغب بها لأنها مختلفة، وها هم يفرزونني عنهم، ولكنّ أمي كانت تقول لي "هي مميزة، هي صالحة للأكل مثل الأخريات، هي فقط تمتلك شكلاً لم يكتشف بعد، هي الجيل القادم من الحلوى الأكثر مبيعاً وسوف يحاول الجميع أن يصنع مثلها عندئذ ولكنّهم سوف يعجزون، لأنّها هي من صنع نفسها، هم مجرّد حمقى لا يعرفون شيء".

ثم قلت بابتسامة "لن احتاج لأيّ أحد، لن أثقلهم، ولن أستند عليهم، لأنّ لدي أحلام تسندني".

الفصل الحادي عشر:

صديقي الطائر

هل سوف تلتقطني إن وقعت؟ بالطبع سوف أفعل، نحن أصدقاء، ولكن هل سوف تأخذني معك إن رحلت؟، سوف أفعل فنحن أصدقاء هل نسيت؟ هكذا تعاهدنا، عندما فتحت باب الحرية له، رجوت دوما، وصليت كي لا ينساني.

استيقظت ذات صباح مرتعبا على صوت عاصفة من الطيور التي بدت وكأنّها تصرخ برعب، دعكت عيناي، مستغربا حائرا، طوال الثماني سنوات التي عشتها لم أشهد هكذا صباح صاخب.

خرجت إلى البلكونة، اتكأت على الحافة بكوعي، كانت لدينا شجرة كبيرة أمام المنزل، شجرة تفاح سمينة، لها جذع قوي متين، نظرت إلى الشجرة بتركيز، شيء ما هناك يحدث، كان هناك طير صغير قد وقع من عشه، جميع العصافير قد بدت وكأنها تنتحب، هرولت نحو الداخل، خرجت من غرفتي مسرع وتسلقت السلالم نزولا، ارتديت حذائي الرياضي بعجل وخرجت، تقربت على مهل، نحو الصغير، احتضنته بكفاي، وأغلقت عليه بلطف، كان يرتجف من الخوف، لقد كان مثلي عندما انتقلنا هنا منذ

لا تتخلى عن عنادك

لقد كُنتُ أشفق عَلى نَفسي ودعوتُ الظَلامَ إلي، فَأخذ يَأكل قَلبي. الحقد عَلى الظَروفِ التَي صَنعتني، عَلى الحَاضِر الَذي عَاقبنِي، وعَلى نَفسي اللئَيمة التَي كَرهتني. شعرت بالدونية ولأول مرة، اشعر بأني شخص عادي كأي شخص آخر. لم أَكن عظيماً كَما توقعتُ، لازلت طفلا يبكي أكثر مما ينهض. أنا أستحق الأفضل. استحققت الأفضل وكنت أستطيع تحصيله كأي شخص ناجح ولكني لم أكن أمتلك الشجاعة لترك راحتي، للخوض في الحياة بجدية.

غَاضب مَن عَائلتي الَذين لمَ يَهتموا بَي، ولم يشجعوني؛ لم يؤمنوا بَي بِينما كُنتُ لا أَرى غَيرهم. كُل شَيء تَحطم، ما بَاليد حَيلة. كل مرة أختار بَها طَريقي أجدهُ أصعب وأني أحتاج الكثير من الوقت لأكمله وبعد كَل هَذهِ السَنوات؛ اكَتشف أني في الطريق الخاطئ وفاتني حتى أن أعود. أقف بَين المَاضي والمستقبل، لا أستطيع العودة ولا المضي. لَذلك لَقبتُ نَفسي بَالضائع؛ وبدأت أشك بمعتقداتي وأفكاري. أردت أن أشعر بَالراحة وألا أبكي مُجدداً للأسباب التافهة، وألا أنهار أمام الأشخاص الخطأ.

أريد من الأشياء التي سَعيت لأجلها أن تأتي، أريد لكل شيء جعلني أبكي أن يعتذر مني، لا أريد أن أحارب لوحدي بعد الآن.

كل هذا الجهد مُثير للسَخرية أكثر مَما هو مُثير للشفقة. ثم أقول لنفسي "لا أحد سَوف يُساعدك أيَها الأحمق، يَجب أن تُساعد نَفسكَ. ابدأ مَن الصَفر كُل يَومٍ، مَن جَديد كُل سَاعة؛ واصمد حَتى يَنتهي الفَصل. سَوف تَكون بَخير بَداية الفَصل القَادم. هذا إن كُنتَ جَدياً فِيما تُريدهُ. أَنتَ لَستَ الضَحية، لا تَعش وأنَت تُلقي بَاللّومِ عَلى غَيرك (غيرك ليس مسؤول عن إهمالك) لا تَتوقَع أن يُضحي أحداً ما بَحياته فَقط كَي تَنهض أنت. إن لَم تُؤمن بَنفسك فَلن يُؤمن بَكَ أحد أخر. احصل عَلى مَا تَستحقه، اعتني بروحك وجسدك بالمعنى الحقيقي للكلمة. لأن مع كل شيء فَقدته كُنت تَكتسبُ شيئاً غَيره، لَذلكَ تَأكد بَأنّ لا فَقدان دونَ اكتساب. رُبما يَكون الفَقد وَهم اختَرعناه نحن لنصنع الضد، رَبما لا وجود للخسارة وكل شيء رَبح.

بعيداً عن كل شيء هناك من أريد احتضانه حتى لو بالكلمات؛ ذلك الجسد التي أخبرني: بأن لا بأس؛ رغم أنّه كان يعاني، ثم قال لي حتى لو حطموا كل المصابيح في العالم؛ لن يظلم ما حولي لأنّي لن أتوقف عَن نَشر النور، فَالنور الذي يَخرجُ مَن الدَاخل لا يُمكن اطفائهُ ابداً. لهذا قُلتُ اَنهض، لَهذا قلتُ لا تَستسلم. لأنَك تَستحق أن تَكون قَدوة لغيرك، أن يَفخروا بَك، وتُلهم كَل مَن يَعرفك الصَبر والقَوة. تُصبح النَور الَذي لطالما أردته أن يُرشدك فَنحن كُل عَام نُولد مَختلفين، نولد مميَزين، نَولد مَن

جديد؛ لنَعيد بَناء أنَفسنا بأنفسنا. نحن لن نموت قبل أن نُثبت للعالم أننا كنا الأبطال خَلف الكواليس، وأن ما حملناه داخل أجسادنا لم يكن إلا روحاً أرادت مَن يعتني بها بصدق، أنا أعيش، لأن الروح لا تنسى الجسد الذي آمن بها.

-مجرّد اكتئاب-

الغريبون من الجانب الآخر، لايزالون يحدقون بي، يريدون شيئا لا أعلم ما هو، ينظروا لي ويسنون أسنانهم، يريدون نهش لحمي وتمزيقي إرباً، أرى ذلك في عيونهم، لا أريد العودة إليهم مجددا، أنا خائف. كنت دوماً، أبتسم ولا أنظر إليهم، أعمل ولا أنظر، أصنع السخافات ولا أنظر، أنا أخاف أن تَلتقي أعيننا، ولكني بالصدفة قد نظرت إليهم، وها أنا أنسحب إلى الجانب الاخر.

وأخيرا، وصلت لحالة أن تؤلمني معدتي وأرتجف عندما أغضب، يجب أ ن تتجاوز نفسك دائما فاكتئاب الأمس قد تطور اليوم، أتجاوز كل حدود الحزن التي عهدتها، إنّه شيء كبير، أنا أريد إيجاد نفسي بأسرع وقت، أريد إيجاد قوتي وابتساماتي المفقودة.

لذلك توجهت إلى المقابر أبحث من مقبرة لأخرى، تلك الأضرحة الكبيرة قد ذكرتني بكلّ ساحات المعارك، وبكلّ القتلة، لقد ألقيت التحية على قبر تلو الآخر، متجاوزا حلما قد دفن، متجاوز اول صديق، ثاني صديق، خذلان كبير، فشل ذريع، وإلى القبر الخالي الذي حفرته لنفسي، لقد ظننت أني قد تجاوزت كل هذا ولكني بالحقيقة كنت أدور حول المقابر التي صنعتها بعقلي. مجرد اكتئاب، لم يكن شيئا كبيرا، لا تقلقوا، فأنا لفرط ما وقفت

وحيدا، كنت أتوتر عندما يقف شيء ما بجانبي. ثم لم أستطع البوح، كنت مكبلا، عاجزا، أود أن أمد يدي إليه طلباً للنجدة، ولكني وجدت أقدامي تتسابق وحدها للهرب، إلى الجانب الذي كرهته وكرهني، وعندما التقينا، خيم الصمت، لم يتحرك شيء، ولكني شعرت بنفسي أسحق، شعرت بأني أُلتهم حياً.

لابد أنّ كل الذين نفروا مني شاهدوا المقابر التي في عيني، أردت إخبارهم بأني لم أقصد أن ابدو هكذا، وبأني أمر بحالة انطفاء ولم اتحول وحشاً، وبأني أريد منكم ان تتمسكوا بي اكثر. الآن أرى جسدي وهو ينفر من كل شيء، يتكور على نفسه بحزن، وجدت نفسي أصم، لم يجد الكلام مخرجا، لم أكن امتلك فما، شيء ما يسحبني، شيء أقوى مني. كيف يطلب النجدة من لا يجيد الكلام؟، ألم تكفي تلك النظرة في عيني لتعلموا؟ ام انكم تعمدتم الرحيل. هل هذا هو الاكتئاب الذي أردت مساعدة الناس في تخطيه؟، نفسي لا أستطيع أن أنجو منه، أنا لا أستطيع أن أفعل شيء لإنقاذي، أنا أشاهد كلّ شيء صنعته يُهدم.

كلّ الأشخاص قد هجروني، وقد تُركت هذه اليد التي لاتزال ترتعش تتمرجح في الهواء بمفردها، تَفلت منها الأشياء، أصابعي البليدة المتعبة، كلّ شيء لازال يستمر بالسقوط. وأنا لا أستطيع حتى أن أكف عن

الانتحاب -في داخلي- لا أعلم، لا أعلم صدقوني، كلّ هذا الانطفاء لا أعرف سببه، كلّ تلك الكوابيس المظلمة تمنعني من الرؤية جيدا، أنا لست عصبيا كما تفكرون، لست وقحا، لست غاضبا، ولست حاقدا ولا اتجاهلكم عمدا. أنا منطفئ، لازلت خائفا من الظلام الذي هربت إليه - الجانب الاخر- كنت ذاهبا لأبحث عن نفسي التي لا أعلم أين هي.

الظلام صديقي قبل أن أجد هؤلاء الناس الذين لم يروا انتفاخ عيناي، هؤلاء الذين فقدتهم عندما انطفئت، أود أن أتخلص منكم؛ لأنّكم تريدون ملائكة منيرة كي تكون صديقكم، أنا لا أنفع.

أنا قد تلاشيت في أحضان البؤس، قد ذبت في بئر مظلم، تلتف حولي، تحتضنني كآبتي. هل أنتم غاضبون مني؟ اغضبوا، ارحلوا، أحبوني بكلّ ما بي من ظلام، أو ارحلوا، فأنا أمر بحالات نفور أهرب بها وأهرب، وأهرب، من كلّ الأشخاص الذين أحبهم، ولكني أتمنى بداخلي، أن يجرني أحدهم من تلك اليد البليدة إلى حضن كبير يهدّئ خوفي، ويقول لي " لا بأس سوف أنتظر عودتك، لن أغضب منك؛ لأني أعلم بأنّ هذا ليس أنت، أنت جميل ولا داعيَ لتقول شيء فأنا أعلم من أنت، ولكن هذا الظلام قد جاء فجأة وغزاك، وعندما تنتصر سوف تراني أشجعك، أرفع يدي وألوّح لك من

بعيد، في تلك الحرب، لن تخرج خاسرا صدقني، لن تخسر نفسك ولن تخسرني".

ليكن حبنا فوق كلّ شيء، فوق المسافات، فوق المادة، فوق الألم، وفوق الواجب، فالواجب الوحيد الذي أعرفه ألا تتخلى عني لأي سبب وتحت كلّ الظروف، أليس هذا هو الحب؟

سوف أعتاد وأخبر نفسي، لا شيء سوف يكون بخير، ولن يتحسن شيء، وكلّ جهدك سوف يذهب هباء، وكلّ الأشخاص الذين سعيت إليهم سوف يغادرونك، سوف تسقط كثيرا، وسوف تتمنى الموت أكثر مما تفعل عادة، ولن تستطيع الوصول إلى خلاصك، حريتك؟ لا وجود لحرية محكوم بالإعدام قد تأجل توقيت قصاصه. مع أني متأكد من اني سوف أكون بخير لوحدي، لأني ما عدت اخشى شيء.

أنت لست خائف، ردة فعل الآخرين لا تصنعك، هم لا يهمونك، كلامهم لا يغيرك، تركهم لك لا يميتك، افعل ما تريد.. وقل أنا لن أسعى بعد اليوم لإرضاء أي شخص غيري، سوف أصنع من نفسي شخص عظيم، لن يقوى أي شخص بعد اليوم على تجاهلي، لأني سوف أحترق، سوف يراني الجميع أحترق، يرون النيران تتصاعد، يقولون كم هي رائعة، لن يتجاهلوني مجددا."

ألا تمل؟، يخذلونك ثم تعود، ثم يخذلونك، ثم تعود، ثم يخذلونك لأنّهم يظنون أنّك لا تشعر، ثم تعود لأنّك تظن بأنّهم آسفون، ولكنّك سوف تضطر بالنهاية إلى جمع أشلائك والمغادرة ولأنّ أجزائك ترفض أن تلتصق ببعضها بعد أن تحطمت عشرات المرات، ذلك الجسد، لم يُخلق ليتم تحطميه بل ليتم تقديسه، ألا تعي المعجزة التي وُضعت داخلك.

قف، لا ترتجف مثل الأحمق، قف هيا، أنت أمام شيء قاسٍ، متوحش، ولا يرحم، أما أن تؤكل أو تصر على النجاة، لا تصفق يداك طلبا لصفح لتنجو، مت إن لزم، مت أثناء المعركة، لا تمت خاسرا، لا تمت جبانا ومتخاذلا، دافع عن نفسك، دافع عن كرامتك المتبقية، عن مبادئك التي أفنيت عمرك تصنعها، دافع لحماية تلك القبور التي شيدتها، عن تلك الشظايا التي نزعتها عن جسدك بالقوة لتخليص نفسك من هذا الألم، لا تدع كلّ شيء يضيع هباء فقط لأنّك خائف، أنت تواجه خوفك الآن، لذا تأكد من الانتصار. دع الخوف يسقط، دعه ينهر بقوتك المزيفة، أوقف ذلك الارتجاف أخبرك ألا تسمع، انطلق كالمجنون، اغضب، أنّ الغضب قد يكون سلاحا ذو حدين ولكنّه سوف يمنحك القوة، اصمد، لا تثني ركبتك ولا تتوسل، لا تبكي، لا تدع أي أحد يعلم حتى أنت نفسك بأنك بالداخل هنا خائف حد الجنون، من مواجهة الظلام، تذكر لن تعود حتى تنتصر، وتذكر أن تعود دائما من الجانب الاخر.

الخاتمة

أكتب لنفسي الساخرة، أكْتَبَ لعمري المتناقص، لطريقي المنقطع ووجهتي التائهة. أبدأ بسؤال الشخص الذي يقنطني، أين أنت مني؟ لقد فقدت طريقي وضاعت وجهتي آلاف المرات فأين أنت؟ لقد كبحت طفولتي ودفنت أحلامي حية تناجيني بصوت يبكي، فأين أنت؟ لقد كنت أبحث عمن يحتضنني ولطالما بكيت لوحدي، فكلما وصل رجفان الموت إلى أصابع قدمي، ناديتك؛ فأين أنت؟ أنت لم تكن هنا وقت حاجتي فلماذا تحاول تكسيري كلما جمعت نفسي؟ لما تحبطني كلما نويت النهوض؟ ابتعد ودعني لوحدي.

أنا لا أحتاجك، لماذا تكره أن تراني أبتسم؟ تأتيني بأطنان من الهموم وتقذفني بها، ألم تتخلى عني وكرهتني، ألم ترفع يدك لصفعي كلما أتيتك أشتكي؟؛ الآن عندما وجدت من ينقذني، من يلطف بي ويرحمني، من ينقذني مني، أتيت أنت لتبعدني عنه، من أنت؟ أنت لا شيء بالحقيقة، أنت وهم اختلقته أنا لأمارس تشاؤمي، لأصنع عذراً حقيقياً يحدني. أنا الآن أستغني عنك أيها الحزن، بكلّ أشباهك الأربعين. أنا الآن أتخلى عنك، يا من تقول إني لا أستطيع، يا من يكتب بالحبر الأحمر ممنوع العبور، لن أستمع لكلامك المحبط بعد الآن، فأنا الآن شخص آخر. أنا أفضل، أنا بخير، سوف أشافي نفسي، وأبدأ من جديد، سوف أحب نفسي، وأقدرها. سوف

أؤمن بأني شخص يستحق أن يحيا سعيداً، أن يبتسم وأن يشرق. انا أحب هذا الجسد، هذه الروح. لست عادياً؛ نعم، ولست مميزاً، ولكني متأكد بأنّي أستحق الأفضل، ولست الأفضل كذلك، ولكني أسعى لأكون.

هل اعجبك الكتاب؟ يسرني ان تخبرني بذلك

معرفي انستاغرام ghufranalsamed97

مـــــــرعوبٌ ، خـــــــائف
وكل شيء بي يســـــــــتنجد،
أيادي الظلام تـسحـــــــبني
من أقدامي إلى المـــــــوت،
أتشبـــــــث بكلّ شيء،
أريد النجـــــاة أنا أيضا،
لا تتخلى عني، أصرخ، أناجي
نفـــــسي، أنا أريد أن أحيا،
أرجـــــــوك أنقـــــــذني.
978-9922-9803-0-0
تصميم الغلاف
S.F_12s